
سلسلة
آفاق
عربية
161
فرق التوقيت
قصص
محمود الريماوي
الهيئة العامة لقصور الثقافة
89
R

فرق التوقيت

قصص

محمود الريماوى

وزارة الثقافة



سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

- فرق التوقيت
- محمود الريماوى

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2013م
13,5 × 19,5 سم

- تصميم الغلاف: أحمد اللباد
- المراجعة اللغوية: محمود أبو عيشة
- رقم الإيداع: ١٧٥١٥/ ٢٠١٢
- الترقيم الدولى: 978-977-718-500-1
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 116 شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

161

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

فـــرق التـــوقيت

سِحرُ الحياة

خرجتُ من عيادة طبيب الأسنان إلى الهواء الطلق بمزاج طيب، بعدما نجح الطبيب كما قال في استئصال العصب. الأفضل من ذلك أني لم أنتظر دوري سوى لدقائق، حتى إني لم أتمكن من استكمال تصفح مجلة الأسرة الراقية، ذات الورق الصقيل والطباعة الملونة الزاهية في غرفة الانتظار، وكنتُ توقفتُ عند موضوع في الصفحات الأولى للمجلة التي تزن نحو كيلوغرام، وكان عنوان الموضوع: اعرف شخصيتك من شكل أذنيك.

ما إن خرجت من العيادة، وهبطت درجات الطابق الأول إلى الشارع تحت أشعة ظهيرة عذبة من أيام الربيع، حتى رن الموبايل في جيبي.

ألو ..

نعم ..

هل ذهبت لطبيب الأسنان ؟.

نعم وها أنا خارج من العيادة.

وكيف أسنانك الآن ؟.

أحسن من قبل.

متى ترجع للبيت ؟.

تلكأتُ في الإجابة عن سؤال لا أعرف إجابته، نظراً لجهلي بمن يتحدث معي.

السيدة المتقدمة في السن ذات النبرة الأمومية والحماسية، سألتني بعدما تفحصت بالتدريج صوتي:

ألستَ بسام؟ .

أجبتها: لا.

ارتبكتْ السيدة وانسحبت بطريقة غير منظمة عذرتها عليها، وأقفلتْ الخطَ دون وداع أو اعتذار.

مع ذلك سرتني المفاجأة، أقصد المصادفة الغريبة بأكثر ربما من شفائي من التهاب العصب.

بعد ذلك بشهور،عزمت ذات يوم وبعد طول تأجيل أن أغير بطارية ساعتي الثانية، وكلتاهما الساعة الأولى والثانية تلقيتهما هدية من أقارب. نظرت للساعة المتوقفة عن الدوران، فكانت عقاربها متوقفة عند الرابعة إلا الربع .

وضعتها فى جيبى، ولحسن الحظ لم أنس التوقف عند محل فى الطريق، يبدل بطاريات ساعات اليد إلى جانب خدمات إصلاح الملابس والأحذية. تأكدت أن البطارية الصغيرة المستديرة التى عرضها البائع لى والتى بحجم زر قميص، قد صنعت من مادة ستانلس ستيل فى اليابان وليس فى الصين، ونقدته الثمن المعلوم: دينار ونصف دينار، ووضعتها فى الجيب الداخلى العميق للجاكيت، والتحقت بموقع عملى غير البعيد .

ما إن عدت إلى البيت حتى أخرجت الساعة وهى من ماركة جوفيال، فإذا بها "ما زالت متوقفة" وتشير إلى الرابعة إلا الربع. سارعت للشكوى مع نفسى مما حدث، وتساءلت لماذا فعلها البائع معى، ونحن نعرف بعضنا منذ نحو ثلاث سنوات معرفة بائع أمين وزبون مواظب .

حين رفعت نظرى إلىّ ساعة الحائط فى غرفة الجلوس حيث كنت أقف، كانت عقاربها تشير إلى الرابعة إلا الربع .

ما معنى ذلك ؟ معناه أن ساعتى التى بدلت بطاريتها القديمة بأخرى جديدة. .تشتغل ، وأن المصادفة وحدها جعلتنى أنظر إليها فى الرابعة إلا الربع عصراً، وهو التوقيت الذى كانت ساعتى قد توقفت عنده قبل تبديل بطاريتها .

سرتنى المصادفة التى بدت مثل استفزاز خفيف ومداعبة لطيفة، وفتحت شهيتى لتناول طعام الغداء، بعدما كنت فى أثناء العمل شربت فنجانين كبيرين من قهوة سوداء مرة.

لا أعوّل على المصادفات، بيد أني أعجز وبعدما تجاوزت الخمسين، عن المرور مرور الكرام على "قوانين" مبهمة تحكم حياتنا ومصيرنا، وتزاحم ما نعهده من قوانين.

وقد زرت ذات يوم القاهرة لأول مرة في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، ونزلت في فندق نفرتيتي في منطقة العجوزة بناء على نصيحة صديق خبير ب"أم الدنيا". وكعادتي لدى زيارة البُلدان لأول مرة، فقد سارعتُ للخروج من الفندق لاستكشاف المنطقة المحيطة. وقد حرصتُ على قراءة اللوحة الكحلية المستطيلة المثبتة على الجدار التي تحمل اسم الشارع، ولم تكن اللوحة المثبتة بعيدة عن باب الفندق (يسمونه في مصر لوكاندة) وكان اسمه.. اسم الشارع: أحمد حلمي باشا. كان الوقت عصراً والطقس رائقًا في يوم خريفي، وما إن مشيت بضع خطوات، حتى تقدم مني كهل في نحو الستين يستخدم نظارات بنيةغامقة وسميكة، ويرتدي بدلة سفاري ذات لون رمادي، كان استخدامها كما علمت شائعًا بكثرة لدى الموظفين، وسألني بصوت شبه لاهث وبرجاء كبير إن كنت أعرف أين شارع أحمد حلمي باشا. فأجبته على التو: إنه الشارع الذي نقف فيه. فتهلل ضاحكًا وتنفس الصعداء، ورفع راحتي يديه أمامي، ودعا لي أن يُنور ربنا علي.

بهذا تمكنت بعد دقائق من حلولي في المحروسة لأول مرة، أن أؤدي خدمة لأحد أبنائها، وأدُل رجلاً قاهريًا يقيم منذ عقود فيها، على شارع فرعي في مدينته. سرّني ذلك أيما سرور، واحتسبت

المصادفة السعيدة بمثابة إيماءة طيبة لي .. إيماءة ممن ؟ لا أعرف .

وقد انتظرت بالفعل في مرة لاحقة عند الحلاق وليس في أي شارع، انتظرت لأكثر من نصف ساعة إلى أن يفرغ الحلاق القريب من بيتي في عمّان (أغبط نفسي على هذا القرب وأراه امتيازاً دون أن يشجعني ذلك على المواظبة على حلاقة شعر رأسي كلما استحق الحلاقة) انتظرتُ حتى ضجرت، واستثقلت الزبون كثير التطلب الذي أنتظرُ فروغ الحلاق من قص شعر رأسه وطليه بالجل، ومن حلاقة ذقنه وتزجيج حاجبيه ونزع الشعر من داخل أذنيه . وحين فرغ أخيراً ونزل عن الكرسي العالي، إذا به سليم صديق الطفولة، وكان مضى على آخر لقاء بيننا أقل بقليل من أربعين عاماً شمسية. عرفته بصعوبة وكان أسرع مني في التعرف المتبادل، واكتشفت أنه يسكن الحي نفسه. لم نستأنف للأسف صداقة الطفولة، ولم أره بعدها وكنا اتفقنا على لقاء تالٍ، وتبين أننا معاً نكتفي بالمصادفات لا التفاهمات كي تجمعنا .

نستذكر المصادفات السعيدة ونختزنها، وتُقصي الذاكرة ما هو تَعِس ونَكِد منها : دفاعات مشروعة، وتَعلق بما هو لاعقلاني، فالعقلانية لا تورث السعادة بالضرورة، أما اللاعقلانية فلا شك أنها مكون أصيل من مكوناتنا كما العقلانية، وإلا لماذا يندفع المدخنون وحضرتي منهم، إلى التدخين _حتى إنني أدخن وأنا أكتب هذه الكلمات _رغم اليقين القار بالأضرار الفادحة لهذه اللعنة ..

وبين السعيدة والصنف غير السعيد من المصادفات، هناك ما هو

غريب . ففى رحلة إلى الرباط عام ١٩٩٣ حللت فى غرفة فندق ذات مفتاح معدنى ثقيل ، من مفاتيح الغرف تلك التى كانت تميز الفنادق بما فيها ذوات النجوم الخمسة . كان الفندق ويسمونه نُزُل من فئة النجوم الأربعة ، ولعل اسمه سفير ، وقد كان نصيبى الغرفة رقم ١٩٤٨ ، وهو الرقم الألصق بحياتى ، فحضرتى من مواليد السنة التى تحمل هذا الرقم ، وهى السنة التى سقط فيها موطنى الأول فلسطين وقامت على أرضه دولة فى السنة ذاتها ، لخليط وافدين من وراء البحار ينتمون لبلاد ومجتمعات شتى . أتذكر الرقم ألف مرة فى اليوم على الأقل ، مع ذلك فقد شاء من شاء تذكيرى به . حسنًا ، له الشكر وأفترض فيه حُسن النية وسلامة المقصد . فلما دعانى زميل الرحلة لزيارة أنسباء له فى بلدة المحمودية القريبة ، وكنتُ احتفظتُ بالمفتاح فى جيبى وهى عادة متوطنة لدى فى رحلاتى ، مبعثها الوهم بأن الغرفة مُلكى كما هو بيتى لى ، ويكفى أن أحمل المفتاح حتى أكفل أن لا يتسلل أى كان إلى مملكتى (لا عاملو الغرف ولا سواهم من موظفى الفندق . .) ، فأضمن الحفاظ على خصوصياتى وممتلكاتى . لبيتِ مضيفنا الذى قصدناه برفقته ، بستان وسور واطئ وبوابة قصيرة ذات رقم ، وقد لمحت على التو رقم البيت فإذا به ١٩٤٨ ، فاضطررت حينها للاستسلام إلى السخرية ، وزاحمت المضيف الذى كان يرافقنا بعد أن أقلنا بسيارته الفرنسية رينو . . زاحمته عند باب بيته قائلاً : " دع عنك هذا . . المفتاح معى " ، وسارعت بإظهار الرقم النافر على اللوحة المعدنية لمفتاحى ، وقد

بُهت بـالفعل وحدجنى المسكين بنظـرة من لا يملك لأول وهلة سوى الارتيـاب، مع أن المسـألـة لا تـعـدو غـيـر تـمـاثـل أرقام، أمـا المفتـاحـان فمختلفان جدا..

للـمـنـطق العقلى ولـلـمصـادفات مفتـاحـان مختـلفـان جدا، وفى لحـظات نادرة عصيـة على الـنـسـيـان، يـبـدوان وقـد اتحـدا فى مفـتـاح واحد. ليس ذلك ما يذهب إليه بطل القصة، بل هو ما ينبئ به سحر الحياة.

سوء تفاهم

كنت قد قرأت مثل ذلك في كتاب "السيد بلمار" لإيتالو كالفتينو ، ولم أصدق ما قرأت إلا حين استعدتُ ما اختبرته بنفسي من قبل : نباتات تحتاج لأقل عناية، مثل النعناع والورد الجورى وفم السمكة ومكنسة الجنة. أعتنى بغرسها وسقايتها والتمتمة لها، وسرعان ما تصفر ما إن أنهض عنها . . تذبل وتذوى. فيما يخصص شخص آخر وهو هنا زوجتى، بضع هنيهات فقط لزراعة ما يَعِن لها زراعته وهى منشغلة الذهن بأمور أخرى، وبعض النباتات تنقلها وهى ضعيفة مصفرة من القوارير (الأصص) من داخل المنزل إلى الحديقة الصغيرة الخلفية، أو تأتى بها هدية لنا من جيران، ومنها زنبق وريحان وحتى الفلفل الحلو وما لا أدريه من أسماء. تزرعها على عجل وكيفما اتفق، فإذا بها تتفتح . . تنمو وتزهر وتزهو.

بعد كل هذا الحب، بعد كل هذا الإخلاص للمزروعات والأزهار، إذا بيدى شيطانية ونواياى سيئة وأنفاسى مؤذية ولمساتى قاتلة.

ثمة سوء فهم مكين بين الكائنات، ينتظر حكيماً لإصلاحه. مثلاً: بين رجل تعدى الخمسين ونباتات يهوى زراعتها والحدب عليها.. تخذله هذه وتأبى النمو، مرةً تلو مرة، بتصميم مسبق وبعناد البغال، وهى الكائنات الرقيقة الضعيفة التى تدوسها بلا رحمة البغال، وما هو أدنى منها من حيوانات وزواحف وطيور.

تخذله رغم مصلحتها فى أن تستجيب للزارع الحريص.

تخذله النباتات وتذوى، ربما غير آسفة على ما حلّ بها.

لا تتردد أن تموت، فداء لبلوغ غايتها فى خذلانه.

ومن شدة كثافته يهبط سوء الفهم.. يهبط مثل السخام، من الهواء إلى تراب البساتين والحدائق نزولا إلى جذور الأزهار والنباتات.

فيما الرجل الخمسينى لا يرعوى، يواصل بدأب محاولاته الشقية،متعللاً فى كل مرة بتعلات ساذجة من قبيل: إن سوء الحظ يستهدفه ويُطبق عليه، يظل يفعل فعله ويضرب ضربته.

سيزيف الذى ظل يحاول مرة بعد مرة، كان أشطر. فقد خرج على الأقل ببياض الوجه: بأسطورته الذائعة.

الثلاثة ورابعهم

يتململ الرجل الضخم البنية فى مقعده، يرسل إلى جيرانه على الطاولة المجاورة نظرات مراقبة صريحة، متعمداً لفت النظر إليه. ثم يبدو متأهباً لقول كلام" يتعذر عليه" كتمانه. إنه على جانب من التهذيب، ومراقبته غيره ليست من باب التطفل أبداً ،كما قد يتبادر لذهن أى أحد.

الجار الأقرب إليه على الطاولة المجاورة، يستشعر تململ الجار القريب فيسارع بالالتفات اليه ، مصوباً نظرة تساؤل إليه.. ما إذا كان يعرف أحداً على طاولتهم، أو إذا كان هناك أمر ما يود قوله.

الشحص المنفرد، ثابت لا يرتبك. ومتمسكا برباطة جأشه وراسماً ابتسامة ودية صافية، يخاطب جاره قائلاً بنبرة مفعمة بالنصح والتحذير: احترس، هناك قطرات ماء تنزل من أعلى على موقعك.

كان الرواد اختاروا الجلوس فى الحديقة الخلفية للمقهى،تحت فضاء مفتوح وإن ليس بعيداً جداً عن حائط يفصلهم عن الجزء الداخلى الرئيسى للمقهى.

لم يفاجأ السامع بما سمعه من تحذير لطيف، بل بادر على التو بتزكية ملاحظة الجار قائلا إنه لا يستبعد سقوط قطرات ماء من جهاز تكييف هواء، أو من أصص الزهور وقد سقاها أحدهم بالماء. لم يكن هناك فوقهم جهاز تكييف أو شرفة. والوضع فى جميع الأحوال لا يقلق .. فماذا لو سقطت قطرات ماء فى هذا الجو الخريفى الرائق الذى لا برودة فيه.. الشريكان الآخران على الطاولة لم يبدر عنهما رد فعل يذكر، اكتفيا باستغراب عابر، عبرا عنه بإبداء شعور بملل خفيف.

السامع نفسه لم يستشعر منذ جلوسه مع صديقيه قبل نصف ساعة سقوط قطرة ماء عليه.

ارتاح القائل صاحب الملاحظة ارتياح من أدى واجبه وأظهرحسن نية تامة ولباقة ملحوظة نحو جيرانه.

على هذا النحو تم تواطؤ تلقائى على تمرير ملاحظة خاطئة ولا لزوم لها.. وتلك بداية، بداية ناجحة انضم بعدها الجالس الوحيد بسلاسة إلى الحلقة المجاورة. تبادل الكلام مع الثلاثة بحرارة حول الجريمة الأخيرة التى شهدتها البلاد، ووافقهم فى تشككهم بأن الشاب الذى تم القبض عليه مؤخراً: لا يُعقل أن يكون هو المجرم الحقيقى فهو مجرد يافع "نعنوع" لا ينفع حتى لاشتباك بالأيدى مع

من يصغرونه سنًا . ثم لم يلبث أن بسط أمامهم صفحة صحيفة استلها من جيب جاكتته، وقد نشر فيها خبر موسع عن لوحته الأخيرة المفعمة بالألوان . وقد اضطر اثنان من الجالسين لقراءة الخبر الطويل ولم يكن لأى منهما اهتمام يذكر بالرسم واللوحات، وقد بادر المنضم للجلسة بالحديث عن اللوحة الأصلية التى لا تقدر بثمن والتى لا نسخة ثانية منها، وعجز الناس عن التمييز بين لوحة مبتكرة وأخرى مستنسخة عن صورة فلمن ترسم، وعن غفلة النقاد، وفساد الرسم بالكمبيوتر ، وعن الرسامين المحبطين الذين لا يملكون ثمن أدوات الرسم فتحولوا إلى الكاريكاتير . لم يكن صوته عاليًا فحسب، بل كانت هيئته نافرة فهو يتقدم الجالسين عمراً بثلاثين عامًا على الأقل، ويتمتع بحجم يعادل حجوم الثلاثة معًا .

كان يكتفي بالبث وهناك من يسمع وهو من تم تحذيره من قطرات ماء تتساقط من فوق، وهناك من ذهب فى السرحان ولم يعد . أما الثالث وهو يكبر رفيقيه بسنتين أو ثلاث سنوات، فقد اعتصم بالصمت ، لكنه لم يتردد ما إن غادر " الدخيل" ، عن الرهان وبكل ما يملك، أن الرجل كتب الخبر بنفسه عن نفسه، فمثل هذه الأشياء على ما قال تحدث فى الصحف .

ولما استغرب شريكا السهرة أن تحدث أشياء مثل هذه، فقد نهرهم المتكلم بوجه مكفهر : أين أنتم؟ من يجعل قطرات الماء تسقط علينا من دون أن نراها أو نشعر بها، فإنه يصنع أعاجيب أصغر من هذه .

الصديقان المستمتعان شعرا بالزهو لنباهة رفيقهما ، ولم يتوانيا بعبارات ضاحكة عن توعد "الدخيل" المغادر بسوء العاقبة ما إن يصادفاه.

القاهرة ٧ ديسمبر ٢٠٠٨

أضحى

في وقت مبكر نحو الساعة السابعة من صباح عيد الأضحى يتجمع خلقٌ العدد حول جزار، يذبح أضاحى العيد أمام أحد المحلات المغلقة. الجزار شاب أسمر نحيل معتدل القامة يرتدى جزمة بيضاء بلاستيكية طويلة، ويضع مريلة ملطخة بالدم حول خصره. يتجهم الذباح لدى اقترابه من الأضحية، و لا ينسى أن يضحك متباسطًا مع أصحاب الأضحية، ما ينم عن أنه ليس جزارا محترفًا وأنه يقوم بهذا العمل كي "يسترزق في العيد" .عشرون ريفيًا أو أكثر، يقرفصون ويتابعون بملامح مكدودة مشدودة عملية ذبح البهيمة الجاموسة، يمتلكون جميعًا الأضحية ويتقاسمون لحمها.

بين هؤلاء صبي يرتدى جلابية حائلة اللون مثل الكبار، وليس معلوما إن كانت تلك هي ملابس العيد ،أم أنه سيقوم باستبدالها

بملابس جديدة فور عودته إلى البيت. الصبى حرص على الجلوس فى أبعد موقع ممكن. جلس مقرفصًا يملأه الفضول والحذر، ثم أخذ يستغرب كيف أن الآخرين لا يتألمون وهم يراقبون عملية الذبح. يتألم ويخاف ويضع راحة يده على رقبته ويكز على أسنانه، فيما السكين الحادة تحز بقوة رقبة الجاموسة المربوطة أقدامها بحبال غليظة. ينظر إليه شقيق أكبر بنظرات ساخرة ثم يشكمه بنظرات ثابتة. يقول الصبى ابن الثامنة لنفسه إنه حين يكبر لن يتألم ولن يخاف. يبتعد عن مجرى الدم المتدفق ويجدها فرصة لتصريف توتره. ينهض ويبتعد. يتعاون اثنان مع الجزار على حمل الأضحية وقد نفد منها الدم إلى سيارة نصف لورى كانت فى الانتظار. الصغير يهز رأسه ويتمتم: ماتت. شقيقه يلكمه بقوة على كتفه: الجاموسة اندبحت مش ماتت يا حمار. يهز الصغير رأسه إمارة على الموافقة من دون أن يجرؤ على القول إنها ماتت لأنها اندبحت، ثم يغمغم مبتهجًا مع نفسه لأن يوم العيد قد بدأ.

القاهرة ٩ ديسمبر ٢٠٠٨

صوت غريب

وِحدةُ الرجل الشاب الأربعينى الحسن الهندام، العامر بالصحة والأقرب إلى الوسامة، بدت غريبة بعض الشىء، وهو يجلس وحيداً فى وسط الكافتيريا. كان على مقربة منا على الطاولة المجاورة لنا صديقى وأنا. أخذت ملامح الضيق تتجمع على وجهه شيئا فشيئا، ثم بدأ يتوتر ويزم شفتيه تحت شاربيه الكثين الأسودين والمكتملين، كمن يتذوق طعما لاذعًا لا يملك رده، دون أن يوجه أبصاره إلينا أو إلى غيرنا، إذ بقيت مصوبة إلى الأمام إلى مدخل الكافتيريا قُبالته.

لم يكن ينتظر أحداً. هكذا خمنت صديقى وأنا وكلانا يكبره سنًا. كان يتخذ من جلسته مكانًا لاستراحة وتجميع شتات نفسه، التماسًا لحل مشكلة أو اتخاذ قرار ما، فى أجواء من الانفراد والتركيز الذهنى.

ولم يكن الشاب الذى فرغ كوب شايه، بلا موبايل .

فقد أخذ يجرى مكالمات صامتة ومتحوطة إذ يميل بجذعه إلى الجهة المعاكسة لنا، يحنى رأسه ويكور راحة يده حول فمه وحول جهاز الموبايل، لكتم صوته فيما هو يجرى اتصالاته. لم نسمع للحق شيئًا ولم نرغب بالسماع، غير أننا لسنا بريئين من الفضول وكان أصابنا ضجر بعدما تبادلنا الحديث (ثرثرنا) من قبل على مدى خمس ساعات .. الحرص المفرط على الخصوصيات مزعج بعض الشيء،حين يحمل رسائل تحذير ضمنية للآخرين من مغبة التطفل، غير أن حال المتحوطين أفضل ممن ينشرون أمامك خصوصياتهم، ويرغبون أن يقفوا على كرمك وأريحيتك، فتشركهم أنت بما لديك من شؤون خاصة.

أجرى الشاب مكالمة ثانية وثالثة بالطريقة إياها والتحوط نفسه. لم تطمئنه اتصالاته ولم تخرجه من حال التوتر. على أن صوته بقى مكتومًا لم يرتفع. حسدناه على ضبط انفعاله ولباقته المفرطة. نظر إلينا ..إلى من طرف عينه نظرة قوية، رغبت أن لا أعتبرها نظرة توبيخ، بل مجرد امتداد لحال الضيق التى تكتنفه. وبمزيج من المكر وادعاء البراءة تبسمت له. لم يلحظ ابتسامتى إذ سرعان ما أشاح ببصره عنى، وانكب على إجراء مكالمة أخرى .

لم تمض دقيقة بعدئذ، حتى صدر عنه صوت مسموع لأول مرة، لكن الصوت للأسف غريب إلى حد كبير. غير مفهوم. غير مفهوم أبدًا رغم أنه تكرر صدوره عنه.

لا أملك وصفًا لهذا الصوت البشرى. لا يكفى القول إنه مبحوح متحشرج ومتقطع. لو كان المرء فجًا سمجًا، لوصف الصوت بأنه يكاد يكون صوتًا غير بشرى. لكنه يا لخجلى صوت آدمى، وكان صاحبه يجهد فى إخراجه بملء طاقته، للتواصل على طريقته مع الطرف الآخر.

كل ما فى الأمر، أن جارنا فى جلسة المقهى، المتكلم صاحب الصوت مستخدم الموبايل بكثرة، كان أخرس.

القاهرة ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨

الفراشة تبطش (*)

ترفرف فراشة بيضاء في فضاء الغرفة ساعة الغروب، وتحط حين تحط على موضع من موجودات الغرفة لايراه، ولن يراه الجالس الساهم في رفرفتها والمنتشي بعبورها المفاجيء. تغيب عن النظر لوقت أطول من المتوقع، حتى يخال الرجل أنها انتبذت مكانًا قصيًا تنال فيه قسطًا من الراحة أو النوم.

يحدق في ساعة الحائط: تعدت السادسة مساء. يشكو من العطش بعد أن فرغ كوب الماء أمامه. ويشعر أن وجع ظهره على حاله ولم يشتد عليه. يفكر الرجل الوحيد أن ثمة بارقة أمل غامضة تناوشها نقاطٌ قاتمة في حياته، ثم يفكر أن الفراشة غافلته وطارت من النافذة الغربية نصف المفتوحة، فإذا بها ترفرف فجأة في الغرفة وقد خرجت من مكان غير معلوم. ترفرف ليس بعيداً عن متناول

ذراعه لو مدها لكنه لا يمدها ، فلطالما خشي على الفراشات لو أمسك بإحداها أن تذوب في يده. وبما أنها بدأت تعتم فقد نهض وأضاء ضوء النيون ، فطارت إلى الضوء مهووسة ، وعلى الأغلب فقد اندفعت في ذلك الاتجاه بغير إرادتها ، كما يبرع في تفسير ذلك ضالعون في عِلمى الفراشات والنيونات.

يشرع في مراقبتها حتى تُضنيه متابعة دورانها المحموم.

لم تحترق الفراشة. كذبت الأمثال ولم تحترق.

لمبة النيون صمدت أيضًا أمام الضغط الشديد لخفق الأجنحة ، وبقيت سليمة تنشر ضوءها الأبيض بتفانٍ وإتقان ، كأن لا فراشة تدور حولها بجنون.

الرجل الذى استحضر فراشة بيضاء هو من احترقت أعصابه ، وكاد وهو يدور مع الفراشة التى تدور حول النيون.. كاد يشم فى وحدته فى ثياب بيجامته دخان الاحتراق.

مع ذلك لن يوقف دورانه أحد. لن يطفئه أحد. لن يتعاطف معه أحد.

من يتعاطف مع رجل قابع في غرفته ، وقد عاين الفراشة وحدها (أن تقول: فراشة في غرفة ، كأنّ تقول: امرأة في أنبوب) ونسى ما لا يُنسى؟. مع أنه نسى في تلك اللحظات فقط ، نسى أن يستدعى معها جبال القدس ووديان رام الله وأفق حيفا وبساتين أريحا (دع عنك سعال الفلاحين، هرولة الصبيان ، نذور الأمهات ،مناورة العصافير ، مزاحمة النحل ، تشابيب الراعى ورنين أجراس

الأكباش) . نسى الصخور الخضراء الطرية بملمس الطحالب، النسائم اللاهية فى أشعة الشمس، جمهرة ألوان النباتات البرية، الظلال المتطاولة وكل ما يؤلف ملعب الفراشات وفضائها .

ها هى فراشة بيضاء تقترب منه، ترفرف وقد اضطجع دون حراك فوق رأسه الأشيب، وكما تحوم فراشة شاردة حول شاهدة قبر بيضاء .

(*) للكاتب قصة قصيرة جداً بعنوان "بطش الفراشة" فى مجموعته "ضرب بطىء على طبل صغير"، الصادرة فى القاهرةعن دار الثقافة الجديدة ١٩٩١

كيوى، يازور وأفوكاتو

وقعت عينى على الفاكهة ذات اللون الأخضر الداكن، على حبات الكيوى والأفوكوتا فى ركن سوق الخضار الشعبى، فجذبتنى اليها ووجدتنى أهتف بصورة عفوية وبصوت ليس منخفضاً: هذه بضاعة إسرائيلية. قلت ما قلت بنبرة أسف حرصتُ أن تبدو ودية، نبرة من يتطوع لتوجيه نُصح خالص لشخص يهُمه أمره. يستهوينى هذان الصنفان من الفاكهة فقد سبق أنِ تذوقتهما قبل أن أعرف مصدرهما، ولم أقل ما قلته كشرطى ضبط بضاعة مسروقة، ولا كمفتش تموين اكتشف بضاعة فاسدة.

كان البائع دون العشرين من عمره: بديناً حليق شعر الرأس، بفانيلة بنية نصف كُم تحمل رسماً باللون الكحلى لم أتبينه وبنطلون جينز حائلى الألوان، يقف ببوط رياضى قماشى قديم كان

لـونه أبـيض ، بـسـحـنـة من تم زجه فى هـذا الـعـمل عـلى كُره منه . أما جناح البيع لديه فهو من أصغر الأجنحة فى سوق العبدلى فى عمان ، الذى يفتح أبوابه صباح كل جمعة وهو يوم العطلة الأسبوعية .

وفى حين توقع البائع أن أسأله عن الأسعار ، أن أدخل معه فى مساومات مألوفة ربما تدرب عليها ، كما تدرب عليها المشترون وأنا أحدهم ، فقد فوجئ بملاحظتى . . ومع سماعه للملاحظة غير المتوقعة ، انتابه وجوم وبدا وقد فقد فجأة خبرته المستحدثة فى التجارة ، وعاد تاعسًا كسيفًا لم يكمل تعليمه المدرسى ، وظهر قليل الحيلة فى أمور الدنيا ، وبدا وقد أشاح ببصره عنى اتقاء للنظر المتبادل فى العينين ، مثل ابن يقف أمام أبيه المحافظ وقد اكتشفه هذا وهو يرتكب موبقات . ولا أذهب بعيداً فى التشبيه فهو بالفعل فى عمر أصغر أبنائى ، دون أن أكون على تلك الدرجة من المحافظة .

قلت لنفسى وأنا أنقل من يد إلى يد أخرى كيسًا بلاستيكيًا أسود وثقيلاً ، اشتريت محتوياته من بائع آخر فى السوق . . قلت إنى أرغب بهذه الفاكهة لكن مصدرها يجعلها فى فمى سيئة المذاق . وأخبرته أنه ليس الخطاء الوحيد . ليس البائع الوحيد الذى يبيع مثل هذه البضاعة . لم يكن هناك أحد سواى من الزبائن أمام ركنه ، ما شجعنى أن أتباسط معه بعض التباسط ، دون التسبب بإحراجه أمام خلق الله . حتى أنى سألته على عجل عن بلدته الأولى ، فأجاب إنها يازور(*) وأوضح لى أنه لم يرها قط حتى الآن .

لست أبًا للشاب اللاجئ الذى تفصح سحنته عن هويته، ولم أكن أنوى التدخل من قريب أو بعيد فى خصوصياته. لم يقدم لى من جهته أى عرض للشراء، فقد انكمش على نفسه، بينما داهمتنى مجددًا حالة تشاؤم خرجت بها من مزاج شراء خضار وبقوليات وفواكه وأعشاب ودخلت فى مزاج مختلف، إذ عدت لتفكيرى المعهود فى دولة جارة حانقة أشد الحنق على شعب آخر، لأن الشعب صاحب الأرض التى أقيمت عليها الدولة عام ١٩٤٨، لم ينتحر بعد ولم يعتذر عن وجوده إكرامًا لبناة الدولة الأوروبيين، وهؤلاء وفدوا بأسلحتهم من وراء البحار.

جرى ذلك صبيحة يوم جمعة فى شهر أيار عام ٢٠٠٩، وهو الشهر الذى يحتفلون فيه على مبعدة نحو مائة كيلومتر من المكان الذى كنا فيه، بإقامة دولتهم على أرض فلسطين. كنتُ قصدتُ سوق الخضار لا للشراء فحسب، بل للتمتع بالهواء الطلق.. بأشعة الشمس الدافئة. خرجتُ لقليل من التريض بالمشى فى السوق غير الفسيح، وكى أضع حدًا لحديثى الدائم مع نفسى، ولأستطلاع الشوارع النهادئة غير المزدحمة بالمركبات فى يوم العطلة، ورؤية الناس المهمومين المنفردين فى "أكوانهم" وبعض هؤلاء من ميسورى الحال والسخرية فى نفسى من هؤلاء، ولتبادل ما تيسر من أحاديث مع الباعة، ولو كان هؤلاء يبرمجون أحاديثهم لغايات اجتذاب الزبون للشراء فقط، وكذلك لرؤية أصناف الخضار والفواكه من شتى الحجوم والأشكال والألوان، التى تسرنى رؤيتها واعتبرها من أفضل الأطايب.

وباستثناء اكتشافي أن البضاعة إسرائيلية وهو اكتشاف لا فضل ولا أسبقية لي فيه، فهذه الفاكهة لا تزرع في الأردن ومصدرها معروف للقاصي والداني، وباستثناء إبداء رفضي لها، فلم أتبادل حديثاً مستفيضاً مع البائع الممتلئ الوجه، وقد وهبه الفقر ويا للمفارقة البدانة لا النحول، والذي يبدو كمن انتقل منذ عهد قريب من ملعب كرة قدم في حي شعبي أو مخيم للاجئين إلى هذه المهنة، والذي لم ينجح في تجارته، ولم يفلح في العثور على سبيل للتمسك بكبريائه أمام من شردوا أجداده وأبويه، وها هو يبيع منتجاتهم ويتعيش من فتات تجارتهم. وحين تأهبت لمغادرة ركنه فقد فاجأني إذ استدركني واستوقفني قائلاً باستسلام وتلقائية لكن بشيء من الحشرجة: إن الجزر أيضاً إسرائيلي. وشرح لي بنبرة العارف الواثق، أن الجزر الذي يباع في أكياس شبكية من النايلون القريب لونه للون الجزر، زنة خمسة أو ستة كيلوغرام، مصدره إسرائيلي وإنه يباع للتجار بسعر أقل من ذاك الذي يباع من مصدر محلي.

قال ما قاله وهو يشير إلى كومة جزر ليس بعيداً عن كوم الأفوكاتا والكيوي على البسطة الخشبية. شكرته على الملاحظة المفيدة، ولم أشتر شيئاً فلست في وارد الشراء من منتجات الأرض المسروقة. في مرة سابقة قبل أشهر على هذه المرة، سمعت ذات مساء دفاعاً محموماً على طريقة الشُطار من بائع محترف، يبيع منتجات من المصدر نفسه في السوق المركزي وسط البلد، ومفاد دفاعه أن منشأ بضاعته كما قال فلسطين المحتلة، وعندما أنكرت

على البائع تلاعبه بالوقائع، أشاح بيده نحوى بشيء من الازدراء، إمارة عن استغنائه عن زبون لم يأت للشراء بل للمناكفة.

لعله ليس أب البائع اليافع الذى لم أسأله عن أبيه، وما كانت بى حاجة ولا كان لائقًا أن أسأله، ولا سألته عن اسمه فلا يقدم ولا يؤخر فى الأمر معرفة اسمه أو الجهل به. وكان قد ابتسم بخجل المراهقين المفعمين بروح مثالية، وهو مُطرق برأسه الكبير الحليق إلى الأرض الأسفلتية. لقد بدا على شيء من الانشراح المكتوم لهذه النتيجة، حتى إنه جعلنى أشعر بامتنانه نحوى لامتناعى عن شراء بضاعتهم التى يُضطر لبيعها.

فى طريق الإياب ولم تكن طويلة، وفى غمرة حذرى أن أخطئ نتيجة انفعالات داخلية فى توجيهى لقيادة السيارة، فقد فكرت كيف أن لصوصًا نقلوا العراك معهم إلى خلف الحدود، إلى أسواق الخضار فى قلب عواصمنا، وكيف أن السجال بات يدور بيننا وبيننا حول أنجع السبل للتعامل مع منتجاتهم (من جهتى فقد توقفت عن الذهاب إلى تلك السوق)، وليس بيننا وبينهم حول الأرض المقدسة. وقد رغبت لو يشاركنى آخرون هذا التفاكر، وأن يستذكروا صورة بائع يافع اقتلع من جذوره بأيسر مما يُقتلع الجزر، وبات يبيع منتجاتهم المزروعة فى أرض أجداده، وكان ينتظر ويرغب بسماع من يزجره.

(*) يازور: قرية عُرفت ببساتينها، دمرتها مع ٤٥ قرية أخرى ميليشيات صهيونية العام ١٩٤٨ ، تقع قرب يافا.

ارتباط عاطفى

فى الموعد الذى أسهر فيه صيفًا على شرفة الشقة الأرضية.

فى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

يحدث أن أرفع رأسى عن الكتاب الذى أقرأ فيه. بفضل ضوء الشرفة الممتد إلى الخارج ،ألمحها عبر البوابة الحديدية القصيرة الارتفاع والمتباعدة القضبان ألمحها خافضة رأسها خفضًا خفيفًا ، تعبر الرصيف المتاخم عائدة من مكانٍ ما إلى مكانٍ مجهول.

لا تلتفت نحو الشرفة، إذ تواصل مشيها المتثاقل بجرمها النحيل إلى الأمام غير عابئة بما حولها ، وهى مشية من يستغرق فى الحديث إلى نفسه.

يحدث فى " الموعد" أن أرفع رأسى فجأة عن الكتاب ، بإلهامٍ أو حدسٍ ما ، سواء كنت مندمجًا بالقراءة ، أم أقرأ وأفكر بأمور أخرى

في الوقت نفسه . أتلفت نحو البوابة فأراها لهنيهات تمشي متهدلة كسيفة، بغير إبطاء . . دون سعي لاستثارة العطف بل بقدر من الأنفة، ودون أن تلمح الساهر الوحيد الذي يرمقها في تلك اللحظات . الساهر المكتهل الذي هجر "المجتمع" بغير أسف أو خسارة، ليتأمل حياته ويعيشها كمن يعيشها .

يخفق قلبي لمرآها وينأى ذهني عما أقرأه، ولا يساورني ندم على التشتت الذهني الذي تسببت به لنفسي . فكائنات الحياة تستحق الالتفات إليها، وهي من يبث الأفكار لمؤلفي الكتب التي أقرأها .

لسبب ما لم أنهض في أي يوم من مقعدي ولم أحرك ساكنًا، لحظة مرورها ولو على سبيل رؤيتها من قرب، أو لاهتبال الفرصة لاستنشاق جرعة كافية من هواء الليل الرائق في عمان . اكتفي بالتحديق في الجدار الحجري المقابل، والاطمئنان على وجود ما يكفي من قهوة باردة ومن ماء ولو لم يكن باردا .

بقيت أدعها تمر بسلام، لا أعترض طريقها ولا تضطر لرؤية أحد . لا أعرف من أين جاءت ولا إلى أين تتجه . ثم وكما كل شيء مهدد بالانقطاع أو اضطراب انتظامه في حراك الكائنات، فقد حدث أن انقطعتُ لأيام عديدة متفرقة عن سهرات القراءة، بداعي السهر في الخارج أو متابعة التلفزيون في الداخل، وحين عدتُ للسهر لبضعة أيام على الشرفة فقد بدأ مرورها يتقطع، وتغيب تدريجيًا عن النظر، في وقت اقترب فيه موعد توقفي السنوي عن السهر في الشرفة وتأهبي للانتقال للسهر في الداخل . كان الصيف

يؤذن بالرحيل ونسمات مطلع الخريف الباردة بدأت تهب نشطة، حتى انقطعت عن مرورها المعتاد. أدركت أن الأمر يتعلق كما معى بتحول الطقس إلى البرودة، دون أن ينطفئ فضولى تجاهها، بل دون أن يتوقف ولماذا المواربة تعلقى بها.

على امتداد أسابيع وأسابيع فى الليالى القمرية والمعتمة، آنسنى مرورها الليلى، وعانيت القليل من التأنيب الذاتى لتقاعسى عن مد يد المساعدة لها، وامتناعى عن إبداء أى كرم تجاهها. فقد انتقلت إلى عدوى الحد من الإيجابية، بدعوى أننا نعيش فى "زمن ردىء".

لم أتبين طيلة تلك الفترة فى سهرات الشرفة ملمحًا لها، باستثناء لونها الأبيض وجرمها النحيل وعمرها المتوسط. وكنتُ واثقًا أنى لو صادفتها وجهًا لوجه فلن أتعرف عليها، أما تعرفها على فمستحيل، إذ لم ترنى من قبل حتى تتعرف إلى من بعد.

غير أنه حدث فى الأيام الأخيرة، فى ساعات ما بعد الظهيرة بُعيد الثالثة عصراً، أن تكررت ملاحظتى لواحدة بيضاء، تضطجع كل يوم نائمة فى استغراق عميق تحت شجرة المشمش الوارفة، فى الحديقة الخلفية للبيت، وقد تعرض جرمها إلى أشعة الشمس. كان جرمها ممطوطًا "إلى آخره" حتى تبدو كما لو أنها ميتة ماتت منذ أمد غير قصير. فى الأيام المتتابعة تلك وفى وقفتى تلك، يداعب النعاس أجفانى استعداداً لقيلولة كل يوم، والانتقال إلى الداخل كى آخذ قسطًا من نوم أستيقظ منه ما إن تؤذن الشمس على المغيب.

يتكـرر المشـهد لأيام متتاليـة ، لأدرك أن النائمة تحت التينة ، إن لم تكن هي ذاتـهـا من كـانـت تعبـر في سـهـراتي، فإنـهـا قـريـنـة لـهـا من أبـنـاء جنسـهـا . لقد تأكـد مرة بعد مرة ارتـباطي المكين بالقطط الأليفة ، ذات الأصـوات الشـجـيـة في الـلـيـل وذات الأرواح الـسـبـعـة ، المتـطلـبـة تـطلـب أطفال من كل أعـمـار ، وعلى نـحـو بـت أشـعـر فـيـه أن بي شـيـئًا مـنـهـا ، وبـهـا شـيـئًا من إنسيتي . وهـا أنا أكتشف سببًا آخر يتعلق بالجـيـنـات يُضـاف لأسـبـاب الارتـبـاط ، فـنحن نـتـشـارك في كـونـنـا كائـنـات ليـلـيـة تـسـهـر عـلى الـلـيـل ، وتـنـطـفئ ذبـالات عقـولـنـا وحـيـويـة أجـسـامـنـا بعد ظهيرة اليوم التالي ، حيث يجرفنا نوم القيلولة .

بائع الأحلام

الرجل السمين غير حليق الذقن، بذقنه التي بيّضها تعاقب الدهور، بملابسه النظيفة المتهدلة حائلة الألوان، الذى يتقدم نحو السبعين بثقة وثبات، والذى عُرف منذ نحو ثلاثين سنة بمواظبته على العمل والحضور منذ ساعات الضحى حتى ساعة العصر، وبإطلاق أصوات مثيرة مُنغّمة، بات يفتقد روح المرح التى طبعت سِحنته وحركاته على الدوام.

الرجل الذى رفض أن يرتدى يونيفورم خاص ببائعى الصحف، وغض القائمون على إنفاذ هذا الأمر النظر عن تمنعه إكرامًا لخدمته الطويلة ولعمره المتقدم.. وإقرارًا منهم بأن لا حاجة له للتعريف بهويته ومهنته، لم يعد صوته المُلعلِع سابقًا يُسمع فى شارعنا فى أيامنا هذه، وتباطأت حركته فقد بات الرجل أكثر بدانة من ذى قبل.

بعض العابرين لا بد أنهم عزوا الأمر لتقدمه في السن، وبعض زبائنه قد يكون تخوف من متاعب صحية ألّت به وإن لم تمنعه بعد من مزاولة عمله، ولعل التفكير ذهبَ بآخرين إلى أنه ربما يشكو عقوق ابن أو سوء حظ ابنة له، أما التفكير الواقعي فيقود أصحابه إلى أن سلعته قلّ الطلب عليها منه ومن أقرانه في المهنة، بعد أن صارت تُباع في سائر البقالات الدكاكين كبيرها وصغيرها ناهيك بالمكتبات، ولا حاجة لمد اليد من شباك سيارة لاختطافها، ثم انتظار بقية النقود بلهفة من البائع قبل أن تضيء الإشارة بالأخضر.

لم أكن من زبائنه المداومين فقد كنت بحكم عملي في مؤسسة صحفية، أحمل الصحف على المقعد الجانبي بجواري جوار مقعد السائق في السيارة، لكنني اعتدت السلام عليه إذا ما تيسر توقف السيارة أمام الإشارة الحمراء. كنت أحييه في البدء بتحية عابرة وقد كان يرغب بالطبع أن أردف التحية بشراء صحيفة منه. ثم لما يئس مني ولما أدرك عدم حاجتي للشراء، بات يكتفي راضيًا برد التحية بأحسن منها. ثم تطور الأمر قليلاً إلى السؤال عن الصحة والبيت والأولاد. وقد عرفت منه أن وضعه المالي ليس رديئًا: مستورة وأحسن من مستورة، وأن الأولاد (وهؤلاء رجال..) ليسوا سيئين، وأنهم بعد أن استقل كل منهم في حياته وعمله ومسكنه يتفقدونه بالسؤال والدعم العاطفي والمالي ويصغون لمشورته، وأنه يعمل على قدميه تحت الشمس وتحت المطر، لأن المكوث في البيت يجلب الهم ويُربّط المفاصل. وأن الحجة (زوجته) أخذ الله وداعتها قبل سنتين،

وأنه متردد فى الزواج من جديد، وأن الأولاد لا يمانعون من جهتهم، وأن إحدى بناته المتزوجات المقيمة فى الجوار لا تُقصر معه فى شيء: تطبخ وتكنس وتغسل له ملابسه بمعرفة زوجها.

هذه المعلومات استقيتها منه مجزأة: قطرةً قطرة، وبالتدريج يومًا بعد يوم أسبوعًا عقب أسبوع وشهرًا تلو شهر، وهو يقف بجوارى فيما أنا وراء المقود، وقد لاحظت خلال ذلك فراغين فى صف أسنانه السفلى ونشافًا شبه دائم فى شفته العليا، حتى اعترف لى أنه هو نفسه لم يعد يقرأ الجرائد، فالفضائيات تبث كل شيء أولاً بأول وساعة بساعة. وسألنى إذا ما لاحظتُ أنه لم يعد يصيح بالأخبار كما كان يفعل من قبل، فقلت له إنى لا حظتُ أن الشارع لم يعد يأنس بصوته البهيج وقلتها بالعامية: الشارع إنفنس. فى واقع الأمر لم يكن يكتفى بترديد الأخبار من نوع :عملية فدائية تقتل عشرين مستوطنًا، محاكمة مجرمى الحرب الإسرائيليين، أبطال الدورى الأفريقى عرب، حل مجلس النواب قريبًا، بل كان يصنع ويؤلف أخبارًا: قنبلة نووية عربية، اختراع علمى يمنع الصلع والشيب(كان هذا الخبر بالذات يثير التندر عليه لكونه أشيب)، تخفيض أسعار اللحوم والدواجن إلى النصف، زلزال مدمر ينتظر إسرائيل بعد شهرين، زوجة فى الخمسين تخلع زوجها العشرينى.

لم يعد يبث أخبارًا "صحيحة" ولا أخبارًا من تأليفه. وقد فقد الكثير من سيماء شخصيته بعدما توقف تمامًا عن البث، مثل

محطة راديو تم إغلاقها . . كراديو "صوت أميركا " العربى بلا تشبيه . وهو لمن يدقق فى سلوكه وصوته الأجش الرخيم وملامح وجهه المكدودة خاصةً العينين السارحتين، وكذلك بما ينشره من آراء فى السياسة، فلا بد أن يثور لديه انطباع بأن الرجل طمح فى مقتبل عمره أن يصبح نجمًا إذاعياً أو سياسيًا يُشار له بالبنان، لكن عقبات كأداء أو سوء طالع جهنمي وقف فى طريقه، فاستعاض عن تحقيق حلمه ببيع الصحف وقراءة عناوينها بصوت جهورى على الملأ .

لما سألته لماذا اختفى صوته وتوقف عن بث الأخبار، هل منعته البلدية بداعى الحد من الضوضاء ؟ .أجاب إنه توقف عن عادته القديمة من تلقاء نفسه " ليحفظ الواحد ما تبقى من صحته . .من سلامة حنجرته ورئتيه . مش جايبة همها" . وفى مرة ثانية أعدت عليه السؤال من باب التمحك، فيما كان ينوء بحمل رزمة متوسطة الحجم من الصحف، وكان من قبل يحمل جبلاً منها دون أن يبدو عليه أى عناء، فأجاب وهو يُنقّل نظره بينى وبين السائقين الآخرين : كان الأمر فى البداية نوعًا من التسلية، فبماذا أتسلى وأنا أمضى سبع ساعات فى الشارع . حتى الكلاب الضالة والقطط الشاردة، لا تقضى هذ الوقت كله فى الشارع . أقوم بتسلية نفسى وتسلية الزبائن المحترمين بعد يوم عمل شاق، ثم قلت لحالى لنفسى : لا يصح يا أبو سميح لرجل فى عمرك أن يضحك على نفسه وعلى غيره . الدنيا طافحة بالكذب ولا حاجة لمزيد منه . وسألته إن كان يقصد

الأخبار التي يؤلفها ، فأجاب : سلامة فهمك . أقصد الأخبار التي أؤلفها أنا ، وتلك التي تؤلفها الجريدة ويؤلفها السياسيون .

راقتني الملاحظة لدرجة بدا لي معها وهو يجهر بها أن شعاعًا من إلهام بَرَقَ من عينيه الكليلتين ، ولم يلبث أن استدرك بنبرة أبوية : سامحني . لم أقصدك أنت يا أستاذ . أنت على راسي . .

كنت قد نسيتُ مهنتي وأنا أتبادل الحديث معه ، فأجبته بهدوء : حتى لو كنتُ أنا أحد المقصودين فلن أزعل ، لماذا أزعل . .هل على رأسي ريشة ؟ .

كأنه فوجئ بما سمع ، أو لعله احتار وقد اشتدت حيرته مع ارتفاع أصوات الزمامير الكلاكسات ، يستأخر مطلقوها توقفي بعد أن أضاءت الإشارة بالأخضر ، فاكتفى بأن شيّعني بعينين بدتا هذه المرة مغرورقتين بدمع حبيس .

ابتسامة أخيرة

فجأة دون مقدمات ، تخلى فى مطلع ستينيات عمره عن البيت الحجر المستأجر ذى الحديقة الأمامية المزدانة بالورود ونباتات الفصول ، والبستان الخلفى العامر بأشجار حوض البحر الأبيض المتوسط .

عن وظيفة الهندسة والراتب الشهرى المجزى .

تخلى الرجل الذى لم يكتهل ، عن عموم أصدقائه وزملائه وجيرانه .

عن مكتبة الكتب وفيها كتب لم يقرأها ، وأشرطة الموسيقى وبينها ما لم يسمعه بعد .

تخلى عن جهاز الحاسوب خاصته ، عن بريده الإلكترونى وجميع ملفاته .

عن بطاقة الصراف الآلي وحسابه في البنك،
وعن سيارته الستروين الرمادية اللامعة غير القديمة.

تخلى عن زوجته التي يحبها وعن أبنائه الشبان الثلاثة .. ترك هؤلاء " أحرارًا ".

تخلى عن ساعته وعن نظارة القراءة .
عن التلفزيون الحديث المنبسط الشاشة ،
عن أحذيته وقمصانه القديمة والجديدة.
عن جهاز الموبايل وما يختزنه من أرقام .

تخلى عن فنجان القهوة بلا سكر، والشاى المنعنع المحلى وكوب الماء المعدنى البارد وطبق البيض المقلى بزيت الزيتون وتدخين القليل من سجائر المساء.

تخلى عن الماء الساخن والصابون النابلسي والعطر وفرشاة الأسنان،
عن مشاريعه التي شرع بها ولم يستكملها.
عن ذكرياته الوافرة التي طالما أبحرت به .. بجُرمه الضخم وساقيه الطويلتين إلى آماد بعيدة.

تخلى عن الضحك والنقمة،
عن الدهشة والمكر،
عن السهر والاستيقاظ،
عن الطيش والتسديد.

تخلى عن قطعة أرض صغيرة اشتراها في ظاهر العاصمة ليبتني عليها دارة لسنوات تقاعده.

تخلى عن مراجعة أطباء ومراجعة مسيرة أمة، وعن جدول حافل بمواعيد شخصية،

وعن شد الرحال إلى أماكن تاق لرؤيتها ولم تطأها قدماه.

حدث ذلك في ظهيرة سبت صيفى العام التاسع من الألفية الثالثة في مركز الحسين للسرطان:

تخلى برمشة عين

بأبسط ما تكون عليه البساطة، بأهنأ ما يكون عليه الهناء.

بخفقة قلب عصفور، ودون أن ينبت له جناحان، ووسط ذهول محبين تحلقوا حوله، ممن وثقوا أن الخطر قد زال عنه، وممن لا يسعهم التدخل في شيء، ولا مد يد العون بأى شيء.

راسمًا ابتسامة عذبة على محياه الآسيوى المكدود، لمعت التماع جوهرة في بحر أسود، ابتسامة أخيرة ثابتة لم تتسع ولم تنطفئ.

وحده أصغر الأبناء ابن الخامسة عشرة، عداء المسافات الطويلة وعازف الغيتار بألحان شرقية، وعاشق القدس القديمة حتى إنه يستنشق في ساعة الفجر عبق حيطانها من تلال عمّان الغربية، احتفظ بها.

احتفظ بتلك الابتسامة كما هى، وكمن يحتفظ بسر أو وديعة.

احتفظ بها كاملة، فقد انتقلت الابتسامة الغامضة إليه بعفو البديهة وبداهة العدوى. تملّكته بمشيئة ما وبتدبير سرى حتى أشرقت على محياه المتورد، وانطبعت على ثغره ظهيرة اليوم التالى

وهو يحمل معهم أباه على الأكف ويكاد يطير به ومعه إلى الشمس، ما أربك خطى مشيعين متجهمين استبد بهم جزعٌ بأنهم هم لا المهندس الراحل، قد لاقوا حتوفهم وأنهم ماضون سراعًا إلى قبورهم.

حانة "الديك الأحمر"

(إلى أنيس الرافعى)

يدندن بأنغام متقطعة ثم يدمدم بعبارات مبتورة، فيما الصوت الغنائى الصادح من المسجلة، يغطى على ما ينبعث عن الساهر من صوت خفيض لا يدوم طويلاً، إذ يحل محله صمته المديد . لقد استمع لتلك الأغنية عشرات المرات، وقد تيقّن أن صاحب الحانة لا يكرر بثها بغرض تعذيبه،إنما لإرضاء كثرة من ساهرين يواظبون على طلب سماعها .على أنه بالتمرين الذاتى نجح وإن بعض نجاح، فى جعل الأغنية . . أغنية "للصبر حدود" للست أم كلثوم، مجرد خلفية صوتية بعيدة لفيض أفكاره، فصارت الأغنية التى يجرى تشغيلها لحسن الحظ بصوت غير مرتفع، تنزلق عن مسامعه دون كبير جهد منه، وبات فى مكنته أن يدندن بأنغام لا كلمات لها أو يهمم بكلمات غير مفهومة فى حانة "الديك الأحمر" الحانة القديمة التى

يؤمها كبار السن، وبين هؤلاء من ينفق عن سعة، وفيهم من يبدد مدخرات العمر في مراودة ابنة الكروم، أما هو فبين هؤلاء وأولئك.

دأب الرجل على ارتياد المكان في الأماسي منذ سنة. مرة يوم الجمعة ومرة في منتصف الأسبوع الاثنين أو الثلاثاء. وخلافًا لما يحدث لدى المكوث في البيت الموحش، أو التمشي في شوارع تحفّ بها أشجار قزمية، فإنه وهو الأرمل المتوحد لا يستشعرهنا غروبَ شمسٍ كل يوم في نفسه، بل يعاين فقط غروب شبابه الأول وانحباس نبع رغباته. يحمل معه كلما أتى كتابًا أو كتابين، يعكف على القراءة بما يُنجيه من تسلل متطفلين إلى مائدته، وقد يُبقي الكتاب في عُهدة النادل ليطلبه منه في المرة التالية. يواظب مع الشرب البطيء على القراءة لنحو ساعتين، ثم تسرح به الأفكار بعيدًا وقريبًا ويعجز عن التحكم بسيولتها، فيُغلق كتابه ويمخر رويدًا رويدًا وأسرع فأسرع في ضبابه "الداخلي".

الرجل الذي قرأ ما لا حصر له من كتب، لم يجرب حظه في السرد. "مع أن لدى ما أكتبه" يُسارر نفسه. غير أن الأمور تجرى هكذا.. تجرى على أعنتها، بقوة خفية ومما يُحتسب "من غامض علمِ الله". وكما أن هناك من يدخن دونما سبب، وهناك من لم يتذوق سيجارة واحدة في حياته دونما قرار متعمد مسبق، كذلك حال هذا الزبون الذي لم تدركه حرفة الكتابة " لست ممن ينشدون مجداً، لكنها حياتي التي تتبدد..من يكتبها إن لم أفعل أنا ".

الزبائن حوله يمحضونه الود الأكيد ممزوجًا بحذر ظاهر منه.

الود: فهو رجل " في حاله" محترم هادئ بلا مشاكل وإن يكُ غريب الأطوار بعض الشيء، من قبيل إنه يطلب كوبين معًا في المرة الواحدة وكل مرة، والحذر منه: لأنه منزوٍ بعيداً عنهم. فإذا حاول أن يمد لهم حبل وداد، أن يفتح لهم مغاليق عالمه بعد ما يغلق كتابه، فإنه يقع في جريرة تباعده عنهم، فلا يلقى إلا التريث والتردد منهم.. من القصير والطويل، من الفَكِه والمتبرم، من الأنيق ومن عشوائي الزى، من الأشيب والأصلع ومن صاحب الشعر الأسود اللماع المصبوغ. يفشل في التواصل مع أيٍ منهم، إذ يفقدون تلقائيتهم حين يخاطبونه وتتبلبل ألسنتهم، ومنهم من يغمز من قناته قائلاً : وخير جليس في الأنام كتابُ، فيؤثر العودة إلى نفسه أو كتابه، ويتساءل إن كان يصح أن يشرع في السرد بعدما تخطى الستين من عمره: " قد يصلح هذا العمر لاختتام مسيرة كتابية لا البدء بها" . ثم التبسم المجاني للنادل كلما تلاقت نظراتهما، دون أن تتوقف حركة الزبائن من حوله بين قادم ومغادر، بين من ينتقل من أمامه ومن خلفه وبجواره من طاولة إلى أخرى. أحدهم وقد بدا وجهه مألوفًا شديد الألفة، يتقدم نحوه. يرمق الوافد الجالس وهو يقف قبالته بنظرة طويلة متفحصة، ويهز رأسه بتحية مقتضبة وودية بلا ريب، ثم يقول الوافد بعد تردد.

* عفواً للسؤال: كأني أعرفك؟.

* نعم؟.

* لستَ غريبًا عني، هل أعرفك؟.

* لماذا تسألنى ؟ .

* هل يضيرك أن أسألك ؟ .

* لا ، لكن هذه ليست طريقة مُناسبة للتعرف .

* كنت أتصور فقط أنى أعرفك . قد يتوه المرءْ عن نفسه ، لكنه قلما يضِلَّ طريقه إلى غيره .

* ماذا تعرف عنى ؟ .

* ألستَ يوسف ؟

* نعم أنا يوسف . ومن أنت ؟ .

* أنا يوسف .

* عاشت الأسامى (الأسماء) .

* ألست متقاعداً من وزارة التموين . ؟

* بلى . وأنت ؟ .

* أنا متقاعد من وزارة التموين .

* متأكد ؟

هنا تقدم الفضولى برشاقة حاملاً كوب بيرة كبيراً ، ووضعه بصورة عفوية إلى جانب كوب كبير للساهر وليس أمام الكرسى الذى جلس عليه ، مما يؤذن بالخلط بين هذا الكوب وذاك وهو ما سيحدث ، ويجيب الوافد :

* نعم متأكد .

* هل عملت فى المركز الرئيسى للوزارة ؟ .

* نعم .

* كيف لا أعرفك وقد عملتُ أنا فيه ٢٧ عاماً ؟ .
* اسأل نفسك :
* كم عملت فى المركز ؟ .
* لشهرين .
* لشهرين فقط ؟ .
* نعم .
* لشهرين ، ثم تقول إنك عملت فى المركز الرئيسى ؟ .
* لقد عملتُ فيه . لم أكذب .
* وبعد الشهرين ؟ .
* بعد الشهرين فى المركز ، عملت فى المختبرات .
* كنت أرغب فى الانتقال إلى المختبرات لكنهم لم يوافقوا ، فأصبحت إدارياً .
* أنا انتقلت إلى هناك ، وتعرفت على زميلة وتزوجنا . إنها رسامة .
* لقد تزوجتها إذن .
* نعم تزوجتها ، لِمَ لا أتزوجها . هل تعرفها ؟ .
* هند ؟ .
* إذن أنت تعرف اسمها . وربما تعرف ما هو أكثر من الاسم .
* لا أعرف عنها سوى أنها عملت فى المركز لأقل من سنة لم أعد أذكر ، ثم نقلوها إلى مختبرات فحص الأغذية . إنها رسامة ، ومولعة بالبوظة (الآيس كريم) حتى إنها تتناولها فى أيام الزمهرير .

* لا . لقد كفت عن تناولها ، بعد أن تضررت أسنانها ضرراً شديداً . ما زالت مفعمة بالحيوية لكنها حيوية سلبية تقريباً . حالتها المعنوية متذبذبة ، أما صحتها فليست ممتازة فقد نحلت نحولاً شديداً ، ما زلت أكُن الود لها رغم كل شيء .

* هل أصابها مكروه ؟ .

* لا ، لكنها أصيبت بما أسماه الأطباء ، طبيب واحد في الواقع لكنه ضليع شَخّص حالتها بتوحد متأخر . لم تعد تتواصل مع أحد أو تُطيق أحداً حتى شريك عمرها الساهر على الدوام على راحتها الذى هو أنا . إننا بحكم المنفصلين . لا ينقص انفصالنا سوى ورقة الطلاق . وكوننا بلا أبناء يسهل الأمر .

* هند . . هند إذن وبلا أبناء . مثل المرحومة . . حرمانها من الإنجاب قَصَف عمرها . أما هند فهى خجولة وأنا أشد خجلاً منها . هذا هو السبب .

* السبب في ماذا ؟ .

* أنها انتقلت إلى المختبرات ، وبقيت أنا تحت أكوام الملفات . .

* إنك تقول كلاماً غير مفهوم . .

* أنا آسف . لقد رأيتك من قبل مرتين فى هذه الحانة .

* وأنا رأيتك مرتين فى هذه الحانة ،.مرتين قبل هذه.هذه المرة غير محسوبة . أنا لا أتردد كثيراً على هذه الحانة ولا على غيرها . هناك متقاعدون يداومون على الإقامة فى المقاهى والحانات . أنا لست منهم ، منذ تقاعدت فى العام الماضى .

* أنا تقاعدت فى العام الماضى أيضًا .

* فى الشهر السابع .

* تتحدث عنك أم عنى ؟

* أتحدث عنى .

* وأنا تقاعدت فى الشهر السابع .

* أنا لا أجلس وحدى على الدوام مثلك . مرة أجلس منفردًا ومرة مع صديق ومرة مع صديقين . مرة أمضى نصف السهرة وحيدًا ونصفها الثانى مع آخرين وهكذا . أفعل ذلك حتى لا أصاب بالتوحد . حتى لا تنتقل العدوى منها إلى .

* إذا كان التوحد مرضًا فهو غير مُعدٍ .

* أنت تقول . أنت تقول ذلك لكن للواقع أحكامه كما يقولون . حين يتقدم الشركاء فى العمر يتقاسمون أمورًا كثيرة منها الصحة والمرض .

* زوجتى ماتت بعد تقاعدى بقليل ، لكننى لم أمت بعد .

* لا تحسد نفسك . لا يحسد المال إلا صاحب المال .

* لا أحسد نفسى . .هل يحسد المتوحد نفسه ؟ .

* هكذا إذن ، أنت متوحد أيضًا . سأخبرها بذلك .

* تخبر من ؟

* هند ، من غيرها ؟ .

* لن تتذكرنى .

* حتى لو لم تتذكرك ، فإن المريض يؤاسيه أن لا يكون وحيدًا فى مرضه .

* سيكون مرضي إن كان مرضًا مصدر سلوى لها؟ موافق. قل لها إنه كان بودى أن أنتقل إلى المختبرات لكنهم لم يوافقوا. وقل لها إني اكتشفتُ موهبتها في الرسم قبل غيرى، وشجعتها على المواظبة.

* سأنقل لها ما قلته.

* قل لها إني سعدت بخبر زواجها أقصد زواجكما. لا لا تقل لها ذلك، لقد أبلغتها بذلك في حينه.

* كنتم تلتقون إذن .

* لا، لم نكن نلتقى، رأيتها مرتين في معرضين للرسم مرة في معرض خاص بها ثم مرة في معرض مشترك. وهناك مرة ثالثة رأيتها فيها تعبر شارع الوكالات ولم ترنى.

* حياة مثل قصص قرأناها ونسيناها .ما الكتاب الذى تقرأه؟.

* الخيميائى . . أوشك على إتمام قراءته .

* لقد قرأته قبل أسابيع بعد أن قرأته هند هل أخبرك بما قالته عن الرواية؟.

* نعم.

* قالت إن في نفس كل إنسان كنزٌ حقا، لكن الكنز قد يكون قابعًا في قاع مياه سوداء عميقة يصعب انتشاله منها، وأن الجهد المضنى في انتشاله قد يستغرق العمر كله، وقد لا يعدل الكنز في قيمته الجهد الخرافى المبذول لاستخراجه .

* هكذا فقد أضاعت كما يبدو كنزها. لم أتوقع ذلك أبدًا.

كانت شديدة التوهج لدرجة أشعر معها أن كنزا داخلها يتوهج فى محياها ولا قِبَل لها بإخفائه.

* أية كنوز.. لقد توحدت. أما الكتاب فيشبه حكايات الجدات إنما بمسحة فلسفية خفيفة وبأسلوب عصرى جذاب.

* هذا انطباعى، كأنك لا تريدنى أن أستكمل قراءته .لقد قرأتُ عن الكتاب قبل أن أشرع فى قراءته.

* أنت تبطئ فى قراءته. أنا أقرأ فى البيت، الحانة ليست مكانًا مثاليًا للقراءة.

وفيما أخذ يدمدم: الحانة ليست مكانًا مثاليًا، الحياة ليست مكانًا مثاليًا.. ليست مكانًا مثاليًا، فقد شعر فى الأثناء بقدرٍ من العناء بل الخواء وهو يجهد فى استرداد شتات وأشطار نفسه.

لم يدرك لنقص الخبرة أنه كابد المشقة حين استدعى قرينه الكاتب أولاً ثم شخصه هو كما يتمناه.

خاض فى لعبة مركبة خلط فيها بين سيرته وسيرة القرين، وأضاف لذلك تخيلات سارد..

لِمَ لا يفعل هذا؟ كيف له أن يملأ اجتماعه المفتوح مع ذات نفسه بغير هذا؟.

لقد سعى لإعادة ترتيب حياته التى انقضت، سعيًا لسَد فجواتها وتقليل خسائرها. ذلك أن يوسف كاتب مع وقف التنفيذ يرتد سرده إلى داخله فيتراكب ويتفاقم هناك، دون أن يمد له أحد يد العون بمن فى ذلك "سيدة المعونات".

لقد تنبّه متأخراً إلى أن المسجلة كفّت عن بث الأغنية شبه الدائمة، والزبائن تفرقوا بمن فيهم نديمه المفترض الذى لم يحضر وبقى كأسه ملآنًا، وقد غفل عن صيحات الديك الأحمر فى الحانة وهى تؤذن بنهاية ليل السهارى، فيما النادل المصرى المرح الذى أضناه التعب وأرّقه السهر شرع فى التباسط معه، وها هو يبلغه أن أموراً غريبة حدثت الليلة فقد صادفه ساهيًا مغمض العينين أربع أو خمس مرات، وفى كل مرة يعود فيها النادل إليه لإفاقته يجده صاحيًا مفتوح العينين وظِل ابتسامة على شفتيه، حتى خال النادل أن زبونه المهذب إنما يُشاكله ويداعبه، وهو ما لم يجد يوسف تفسيراً له، وها هو بذهن صافٍ على أوضح ما يكون الصفاء بصفاء عين ديك، وها هو بكامل نضارته وعنفوانه فى نهاية السهرة، فى المكان الذى خلا من رواده، وإن تكن ثمة مشكلة طفيفة وروتينية تعترضه، إذ ليس لديه الآن ما يقوله أو يفعله هنا أو فى الخارج.

خُنفسة النهار

خنفسة صغيرة سوداء لامعة تدب بمحاذاة الإسفلت على التراب، تزيدها أشعة الشمس لمعانًا واسودادًا. يمكن رؤية استدارة قوس جذعها، على أنها نصف علوى لكتلة مخروطية لا نصف ثانٍ لها من الأسفل، أو احتساب جذع الخنفسة زرًا ممتلئًا سقط من معطف رمادى لسيدة أنيقة، أو مجرد ظهر منحنٍ لكائن مغلق على أسراره دون استبعاد حوار الخنفسة مع حشرات وحشائش تداوم فى زحفها على النظر إليها، مع أن عينيها الغائرتين فى دائرتين جِد صغيرتين، توحيان أنها ترى ما داخلها لا ما هو خارجها.

لقد لمحتُها ما إن خرجتُ من باب بيتى ضُحى يوم ربيعى مشمس، وكانت أول كائن أصادفه صبيحة ذلك اليوم، وبدت ماسة سوداء حيةً وفاتنة.

تدب الحشرة اللطيفة فى طريقها، دبيب كادحٍ نشطٍ متفانٍ لا يتوانى عن مباشرة العمل فى أقسى الظروف، على أن محطات توقفها عن المشى ليست قليلة، فهناك ما يجعلها تتوقف لهُنيهة ثم تعاود المشى. تمشى وتتوقف عديد المرات: أتستشعر بمجسات أقدامها الدقيقة خطراً، أم تأتيها ذكرى مفاجئة، أم تنال قسطًا من راحة، أم تُطلق نداء، أم لعلها تستجيب لحواسها: تسمع صوتًا فتصغى أو تشم رائحة فتستوقفها. .أم أن الأمر أشد بساطة: فطاقتها الحيوية المختزنة تُسعفها على المشى لمسافات قصيرة فقط، وإن كانت متوالية تتوقف عندها كل مرة، كحال الخنفسة المعدنية على البطارية؟.

عِلمُ ذلك عند علماء الخنافس، وعند جمهرة شبان (تقدم بهم العمر الآن واكتهلوا) وقد عمدوا مزهوين فى أيام غابرة إلى تقليدها بشعورهم السوداء اللامعة المرسلة، التى تغطى صفحة الجبين جميعها، ثم عدلوا عن المحاكاة دون تعليل الإقبال والعدول.

وقد فعلتْ ذلك على الإسفلت أيضًا. فقد دبّت الشقية مسرعة ولم تلبث أن توقفت فى وسط شارع فرعى فى غرب عمان لا يعدم مرور مركبات. لم يرها سائق المركبة تعبر، وما كان بوسعه ملاحظة وجودها ولا هو مدعوٌ لهذا. .لا من طرف أنصار البيئة ولا من فاحصى قيادة المركبات. أنا العابر الكهل غير الكليل النظر تمكنتُ من رؤيتها: كتلة صغيرة سوداء على إسفلت أسود تتوقف فى موضع حرج، وقد عَبَرت المركبة من فوقها عبوراً لا بطء ولا

التواء فيه، ولم أحرك ساكنًا ولا نبست ببنت شفة بل إنى أغمضت عينى.

يعلم الله كيف استقبلت الصغيرة فى تلك اللحظة الصوت المدوى للموتور، وكيف تأثرت بعاصفة ريحه وبالروائح المنبعثة منه، وبمن تكون قد استنجدت وهى فى قلب جحيمها. أنا الشاهد شعرتُ بالوطأة الجسيمة للمركبة الثقيلة. وقد تقدمتُ بحذر من خنفسة النهار ما إن ابتعدت ريح المركبة عنها وهدأت العاصفة، ورأيتها وقد نجت نجاةً كاملة بقوة ضآلة حجمها. نجت وبالكاد نجوت أنا من السويداء، وكنتُ أستحق تحذيرات أصدقاء خُلص من مغبة انشغالى بسفاسف الأمور (بخنافس الأمور.. وأمور الخنافس).

رأيتها تدب مجدداً وبدأب إلى الأمام، لا تلتفت للماضى القريب ولا لصاحب الحذاء الأسود الثقيل: الفضولى الغريب بجوارها، وكانت المسافة نحو بلوغ الضفة الأخرى قصيرة ولم تستحق وقفة منها، فمضت فى طريقها لا تلوى على شىء، مضت..

وداعًا أيتها الغريبة.

فوق ما تتصور

فيما كنتُ ألوذ في البيت من موجة برد في الخارج، تلقيت اتصالاً هاتفيًا من صديق عزيز يدعوني فيه إلي الحديث عبر هاتفه مع صديق له، دون أن يبوح بأية تفاصيل. صديق صديقي عرّف نفسه: مصمم ديكور مسرحي يحضر المهرجان المسرحي المقام حاليًا (آنذاك) في شتاء ٢٠٠٩، وأنه يرغب في لقائي لهدف شخصي بسيط. بسيط ومهم كما قال. تواعدنا على اللقاء في مركز المهرجان مساء اليوم التالي، بعد أن يكون قد حضر عرض الساعة السادسة. ألن تحضره، إنه عرض تونسي جيد؟. سألني وأجبته: يبدو أني أعاني من رهاب المسرح: الصالة المعتمة ثم تعاقب الإضاءة والتعتيم والأصوات العالية أو غير المفهومة للممثلين، الموسيقى الصاخبة. فقال إن العروض ليست كلها على هذه الشاكلة، فأجبته

بالإيجاب مستدركًا أن الاحتياط واجب. واتفقنا على اللقاء. كنت أمتلك ما يكفي من الوقت، فالعائلة تقوم في الأثناء بزيارة إلى دمشق. رحلة الشتاء التي تعقبها رحلة الصيف، وكنت أشجعهم على هذه الزيارات كي يزورونها عني.

حين وصلت مساء اليوم التالي سألت من صادفتهم وممن أعرفهم عن سليم ديكورست المسرح، وأشاروا لي نحوه وكان في الانتظار. شاب طويل أنيق وسيم في أواسط الأربعين من عمره، يستحق أن يعمل ممثلاً إلى جانب عمل الديكور. تصافحنا بحرارة وانتبذت معه ركنًا هادئًا في بهو المركز الثقافي الذي تقام فيه أنشطة المهرجان. ووجدنا على التو ما نتحدث به عن المهرجانات التي توفر فرصة للتعارف وعن "نشاطي الفني ونشاطه"، وعن حال الطقس في عمّان ودمشق، وعما إذا كانت هذه زيارته الأولى لعمّان وقد تبين أنها الثالثة.

لحسن الحظ لم تتأخر القهوة التي طلبتها له ولي، وقد أبلغني بعد المجاملات الأولى أنه يحمل لي أشواقًا وسلامات حارة " فوق ما تتصور". ممن؟ من عبدالكريم. مَن هو عبدالكريم؟ تمتمت لنفسي. أضاف على التو: أنت تعرفه. إنه بائع الصحف الشهير قرب صيدلية النافورة. تبسمت بجذل فأنا أحب حقًا مصادقة باعة الصحف والمجلات والكتب، ولي بينهم أصدقاء بالفعل.

قال إن من الصعب عليه العودة إلى دمشق دون أن ينقل الأمانة للمرسلة إليه والسلام أمانة، وهو يرى عبدالكريم يوميًا تقريبًا،

وسوف يسأله ما إن يعود إن كان قابلني أم لا . تعرف أنه لا يتشدد معنا، فإذا لم يكن الواحد منا يحمل في جيبه نقوداً فلا مشكلة . أين تجد مثل عبدالكريم ؟ .

حقًا أين أجد من هو مثله، بل كيف أجده وأنا لا أعرفه . . لقد مضت أربعون سنة لم أزر فيها عاصمة الأمويين .أتذكر فيها شارعًا رئيسياً مزدحمًا بالناس والمركبات البطيئة، وآخر فرعيًا تحف به أشجار يانعة الخضرة متوسطة الطول . أتذكر نوافذ بنايات مطلية بالكحلي . أتذكر أصواتًا منغمة وروائح أليفة وإضاءة خافتة . أتذكر مطعم أبو كمال ومقهى الهافانا وزكريا تامر ومحمد الماغوط وممدوح عدوان وصدر الدين الماغوط (زيوس) وعلي الجندي والشاعر أبو الفتح أو أبو الفتوح الذي عُرف بقصيدته : "الحب ورقة كلينكس"، وشاعر عمودي جهوري الصوت متقدم في السن اسمه الأول مصطفى . لم أقم فيها من قبل، ولم أعقد صداقات خلال زيارتين أو ثلاث زيارات لها، تتعدى صداقات من صادفتهم في الخارج ويقيمون فيها، وبعض هؤلاء رحلوا عن دنيانا .

لجأت بأقصى سرعة ممكنة إلى رسم شخصية في ذهني توافق مواصفات مسبقة : بائع صحف خماسيني يصادق الزبائن ويتحدث عن الكتب كأنه مؤلفها . يشكو مثل زبائنه من ارتفاع أسعارها، يغفو بعد تناول طعام الغداء الذي يتم طلبه من مطعم قريب، قرب تلال الكتب ساعة العصرية تاركًا لابنٍ له أو لعامل عنده الإشراف على البيع . سألته عن الجديد في أخبار عبدالكريم :

هل ما زال يبيع على طريقة البسطات أم أقام كشكًا خاصًا به؟ فقال إنه أقام كشكًا من سنتين كما تعرف (هكذا: كما أعرف، أنا الذى أسأله عما لا أعرف) وتبسمت وسألته إذا كان ما زال يبيع بالدين، فابتسم سليم ابتسامة عريضة قائلا: ليس للجميع طبعًا، لكن لماذا نذهب اليه حالاتى وحالاتك (أمثالى وأمثالك) إذا كان لا يداين؟. قلت له إن الرجل أصيل ، وأوضحت له أنى لست مدينًا لعبدالكريم بشىء. ورغم أنى قلت ذلك بنبرة متهكمة غير خفية، إلا أن سليم استغرب: أخشى أن تفكر أنه بعث سلاماته لك لهذا الغرض، لاستيفاء دين منك أو ما شابه، لا.. حرام. أوضحت أنى قلت ما قلته من باب الشىء بالشىء يذكر، وأنى أعرف شهامة الرجل الذى لا ينسى زبائنه إذ يعتبرهم أصدقاءه، وهذا هو الهدف من إرسال سلاماته، وأنى شخصيا اعتبر عبدالكريم صديقًا لى لا مجرد بائع.

كنت قد تورطتُ فى ما يشبه التأليف المشهدى، ثم التمثيل المسرحى الفورى. لِمَ لا، ألسنا فى مهرجان مسرح؟ من يقصد السوق يتسوق، ومن يذهب إلى المسرح يتمسرح.

هز رأسه وهو يشرب النسكافيه قائلا بصوت خفيض هذه المرة: ما زال عبدالكريم يُسرّب لنا بعض الكتب . لم أسأله من أين يتحصل عليها ما دامت غير مسموح بها. لكنى ذكرت له أن المنع يحدث أحيانًا عندنا، وأن بعض الكتب تتعرض للمنع إلا أن نسبتها أقل مما كانت عليه فى الماضى. ثم تحدثنا عن الإنترنت وأنه لم يعد هناك

محظور في الشبكة العنكبوتية، وإن كان تنزيل الكتب لا يتم دائما ويحتاج إلى قدر من الملعنة وربما القرصنة.

في الأثناء تقدمت شابة ثلاثينية مرحة تهز رأسها يُسرةَ ويُمنة، بوجه وضاء ببنطلون جينز يسبقها عطرها وتبدو صديقة لسليم. ألقت تحية المساء وهي تنقل نظرها بين صديقها وبيني، وبدت راغبة في الانضمام إلينا. استمهلها سليم فتدخلتُ قائلاً: لتتفضل. قلت ذلك لأوفر ظرفًا ملائمًا لانسحابي. تعرفت على صديقته: إنها ممثلة واسمها سناء وسيجرى عرضها بعد يومين، أما قبل اليومين بل الآن فلسوف تكتشف بغريزتها أني لست ممثلاً جيداً، فيما سليم منشغل لا ريب برؤية جوانب أخرى في شخصي، تتعدى مسألة الصداقة بيني وبين عبدالكريم.

"لم يغير عادته" قال سليم وأوضح ضاحكًا: إن عبدالكريم يحتفظ دائماً برُبعية في جيب جاكيته الذي يرتديه صيفًا وشتاء. يمزمز منها خطفًا بين وقت وآخر، وينجح في أن أحداً لا يراه وهو يفعل ما يفعله. قلت له إن وضع الربعية في الجيب نمط سائد في مدن بلادنا بلاد الشام، ويبدو أن مصانع العرق تنتج الربعيات لهذا الغرض.. بغرض وضعها في الجيب الداخلي لمن يشاء. وافقني. تبسمت صديقته وهزت ساقها، تبسمت وتنهدت وبدا أنها تتخيل أنماطًا قديمة من الحياة لم تخبرها بنفسها، وهو ما يثير فضولها.

التفتت الضيفة نحو سليم وفتحت معه موضوعًا بصوت خافت، لعلها تستكمل حديثا سابقًا بينهما، ووجدتها فرصة سانحة

للاستئذان بالمغادرة. شكرتُ سليم بحرارة وسألته إن كان عبدالكريم ينوى زيارة عمان فاستبعد ذلك قائلاً: أنت تعرفه، إنه لا يسافر أبداً، فضحكت قائلاً : لا بد من تنظيم مؤتمر خاص لباعة الكتب ودعوته لحضوره، فوافقنى سليم: بهذه الطريقة سوف يأتى. وسألته إن كان يريد هو أو عبدالكريم شيئا أو خدمةً ما من عمان .أجاب: لا.. سلامتك. ثم تبادلنا على عجل العناوين الالكترونية. صافحته هو وضيفته التى ظلت تحاول فى الجلسة وحتى الدقيقة الأخيرة، أن تستذكر شيئا ما عن شخصى وبدا أنها فشلت فى مسعاها.

شعرت بانفعال شديد باضطراب مكتوم، ولم أشعر بالذنب. كنتُ سأشعر بالذنب لو فعلت خلاف ما فعلته. ما كان يجب أن أطفئ حماسة فنى المسرح الدمث، أن أعبث بلهفته بداعى الصدق، أو أجعله يعود بخبر سيئ من قبيل أن الأمانة (والسلام أمانة) لم تصل لصاحبها. تأدية هذه الأمانة لا مشقة فيها ولا عذر فى عدم إيصالها: مجرد استفسار عن الشخص فاتصال فلقاء معه، وهو ما تم بالفعل وبنجاح.

ما سبق يختلف بعض الشيء، ربما، عما حدث بعد أيام على اللقاء "المسرحي"، ولامندوحة فى إيراده من باب الشيء بالشيء يذكر، وهو بابٌ يستهوينى ولوجه. فحين توقفت بى سيارة تكسى فى العبدلى أمام سفريات الشام، وكنت أقصد عنوانًا على مقربة من تلك السفريات، فقد تهلل من كان ينادى على الراكب الأخير فى الرحلة الأخيرة، لذلك المساء الرخى الذى يتخلله مطر ناعم وريحٌ

ندية. تهلل وهو يراني أهبط بمفردى من التاكسى الأصفر أمامه، وكأن انتظاره قد طال وها أنا وصلت أخيراً. قال هاشًا باشًا وهو ينحنى بعض انحناءة: تفضل تفضل ع الشام، معك أغراض؟». صدرت عنى دون أن تتلاقى نظراتنا عبارة مخنوقة: لستُ مسافراً إلى الشام. "لم يصدق" الرجل، نظرتُ إليه فإذا وجهه ممتقع وبدا مبتئساً وقد تعرض للطعن منى.

ولم يكن يعرف ما أصاب قلبى من طعن لطول ابتعادى عن المدينة الدافئة القريبة، فلم أُلمه وآثرت الانصراف عنه بقدمين متثاقلتين وقلبٍ خافقٍ مسموعةٌ دقاته.

كان من حقى الاعتقاد بعدئذ مرات ومرات، أنى كما فاض بى الشوق للفيحاء فقد تبين أن فيها من يبادلنى الشوق، بدليل الأمانة التى تم إرسالها بلهفة ربما بفضل اسمى أو شخصى الذى التبس على البائع عبدالكريم، أو مصمم الديكور سليم أو كليهما معاً. ذلك على غرابته يثبت أن تخاطراً قد وقع ونجح بينى وبين دمشق العزيزة، وأنى قطعت نصف الطريق اليها..

فرق التوقيت

صارحتُ صديقي: جميع محاولاتي باءت بالفشل.

كنا قد بلغنا أعتاب الفجر، حتى إننا سمعنا صياح ديك مُبادر، أصغينا بافتتان مشترك لصياحه اللطيف، قبل أن يقول: الأمر واضح وضوح عين الديك، لا يحتاج إلى تبيان.

قال ما قاله وهو يتثاءب في شقته حيث نسهر معًا سهرتنا الأسبوعية، وقد سهرنا استثناء في تلك الليلة يوم السبت لا الجمعة. نسهر بصحبة أصدقاء آخرين لا يلبثون أن يغادروا تباعًا مع منتصف الليل أو بعده بقليل، وأتأخر أنا. أحتسي مع الصديق مشروبات ساخنة وباردة، ونتجاذب الحديث في شؤون البلاد والعباد، ثم نشرق ونغرب فيما تأخذنا الأحاديث المسترسلة. النعاس ضغط عليه وأظهره بمزيد من النحول. وفيما كنت أسعى

للتخفيف من حدة صحوى، قلت: إنك تدفع الثمن وفى ذلك ظلم أيما ظلم (نتحدث بمثل هذه الفصحى أحيانًا على سبيل التندر) . وكنت أقصد أنه يضطر للسهر المتأخر مجاراة لى، أنا الذى لا أنام حين أصحو، ولا أصحو إذا نمت.

قال: أنت تعرف .. إنها الساعة البيولوجية.

فأجبت بالإيجاب: إنها ساعتى. المشكلة فى ساعتى.

قال: إن هناك أناسًا كثيرين رجالاً ونساء فى الشرق والغرب، يشكون من هذه الحالة. زوجتى الأولى مثلاً ،كنت أتركها كل ليلة ساهرة على نومى، وأغادر فى الصباح إلى عملى وهى مستغرقة فى النوم (سبق لها أن عملت فى التمريض بدوام مسائى) .

تساءلت مع نفسى إذا كانت غيرت عاداتها بعد طلاقها منه، لكن الأرجح أن لا. وربما كان الاختلاف فى مواقيت نوم واستيقاظ كل منهما، أحد أسباب انفصالهما. بالنسبة لى فقد تعايشت زوجتى مع حالتى، ولو تغيرت عاداتى فلسوف يفاجئها ذلك أيما مفاجأة (لا نتحدث بهذه الفصحى معًا) وقد تضطر لبذل جهد جهيد مديد، كى تتعايش مع هذا المستجد إذا استجد ولن يستجد.

قال لى: إنها ساعتك.

قلت: نعم. وأردفت: إنها فى حالة تأخير دائم لساعتين على الأقل. حين يجرون تغييراً على التوقيت الصيفى والشتوى أزداد اضطرابًا، فكيف مع التأخير والتقديم الطارئين..

قال : واضح ، الساعة الآن هي الرابعة فجراً . أما بالنسبة لك . . لتوقيت ساعتك فهي الثانية فقط .

بالضبط . قلت له .

قال : هذه هي المشكلة .

وذكر أنه سمع في العام الماضي حين كان مغترباً في أستراليا ، وقد أمضى هناك سبعة أعوام ونال جنسية بلاد الكنغرو ، سمع أن عيادة تم افتتاحها لتضبيط (ضبط) الساعات البيولوجية ، ليس في كينبارا العاصمة بل في ملبورن ، ولاقى افتتاحها صدى واسعاً لدى مختلف شرائح المجتمع .

وسألته إذا كان ذهب إليها ، إلى تلك العيادة ، فنفى ذلك فيما كنت أتراجع بعصبية عن طرح سؤالي غير الذكي ، فما حاجته للذهاب إلى تلك العيادة ، ما دامت ساعته البيولوجية مضبوطة منضبطة وما شاء الله عليها . ألكي يبدد أمواله على ما لا يستحق ؟ .

سألته عن الكلفة فقال إنها على حد علمه لا تزيد عن سبعمائة دولار استرالي(نحو ٥٠٠ دولار أميركي) . فوافقته على أن المبلغ ليس كبيراً إذا كانت النتائج مضمونة .

قال : كل شيء بالليزر وعلى الكمبيوتر ، ويستغرق يوماً وبعض يوم . يدير العيادة طبيب وجراح أعصاب عبقري ، شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره من أصل آسيوي ، تحف به نخبة من ممرضات متعددات الجنسية . لكن زوجته (زوجة صديقي) السابقة رفضت الذهاب إلى العيادة .

فاجأنى بالمعلومة إذ كنت أعتقد أن الأحداث، سوف تتجه فى اتجاه آخر. فسارع للتوضيح:

رفضت خشية العبث بساعتها البيولوجية كما قالت. فأن تكون الساعة تؤخر، كما كانت تقول، أفضل ألف مرة من أن تتعطل ولا تعود تعمل أبداً.

منطق.

نعم لها منطقها الخاص بها.

لكنها شكاكة.

جداً .

حتى فى اكتشافات العلم؟

حتى فى هذه.

وأبلغنى أنه سمع أن تلك العيادة، بعد أن طارت شهرتها فى وقت قياسى إلى كل مكان (استغرب صديقى أنى لم أسمع بها)، سوف تفتح "فروعاً" لها فى الخارج. وأن الطبيب الشاب أخذ يستغل أوقات فراغه المحدودة (فى الأعياد وأيام العطل مثلاً) فى تدريب أطباء شبان وأكفاء فى هذا التخصص: تخصص ضبط وصيانة الساعات البيولوجية .وأن التدريب يكلف المتدرب أحد عشر ألف دولار فى دورة مكثفة تستغرق أحد عشر أسبوعاً .

استرالى؟ .

أسبوع استرالى؟.

قلت :لا. .أعنى هل المبلغ بالدولار الاسترالى؟.

قال : لا .أحد عشر ألف دولار أميركى .

وسألته إذا كانت جمعية جراحى الأعصاب العالمية ومقّرها بوتسدام، قد اعترفت بهذا التخصص أم لا ، فقال إنها لم تعترف به ولم تنكره على أصحابه .

أبقت الأمر معلقًا .

أجاب : بالضبط ، أبقته معلقًا مثل أمور كثيرة فى دنيا الاكتشافات العلمية ، ومنها عقاقير إطالة أمد الحياة البشرية .

قلت له وأنا أفكر بالانصراف بعدما تجاوز توقيت ساعتى البيولوجية الثانية فجراً ، والرابعة بالنسبة للناس : لا أجدنى متحمسًا للفكرة .

فقال إنه يستغرب ذلك .

أوضحت أن الأمر لا يتعلق بميلى إلى العناد ، ولا بتشكيكى بالكشوفات العلمية .

بم يتعلق إذن ؟ .

قلت إنه يتعلق بما قرأته لباحث فرنسى فى البيولوجيا الحيوية يدعى دومنيك هومير ، أثبتت بحوثه وإحصائياته ، أن من يعانون من تأخير فى ساعاتهم البيولوجية ينعمون بعمر أطول .

قال : إنه لم يسمع باسم هذا الباحث .

طمأنته إنه ليس معروفًا إلا على نطاق ضيق ،وأنى عرفت باسمه بمحض المصادفة ، وشرحت له إن التأخير فى الساعة البيولوجية ، يعنى حسب هومير أن من يبلغ السبعين من هؤلاء يستشعر أنه فى

الخمسين فقط من عمره، بما يؤثر إيجابًا على أداء أعضاء الجسم، فلماذا أسعى إلى حتفي بظلفي (تبلغ بنا الفصحى هذا المبلغ..) .

قال صديقي : ربما يفسر ذلك ضعف الإقبال، على عيادة الطبيب الاسترالى من أصل تيمورى (تيمور الشرقية) فى ملبورن، رغم انفرادها بهذا التخصص العصرى.

إذن، لم يكن الإقبال طيبًا .

لا، لم يكن طيبا، لكنها لقيت صدى واسعًا انتشر كالنار فى الهشيم. بعض الناس ومنهم الطبيب الاسترالى من أصل تيمورى مولعون بالشهرة والمال، أكثر من التميز الفعلى.

ولما لم أجد ما أضيفه للتو، بادر إلى القول بعينين نصف مغمضتين: ليس هذا هو الخلل الوحيد الذى يصيب الساعة البيولوجية..

ما الخلل الآخر؟ .

إنه خلل ليس شائعًا كالخلل الذى تعانيه ساعتك.

ما هو ؟.

هناك من تتقدم ساعتهم البيولوجية عن غالبية الناس. خامسة الناس بالنسبة اليهم هى السادسة وأحيانًا السابعة .

هل تعرف أحداً منهم؟ .

أعرف .

من ؟.

أنا.

أنت ؟ .

وقد بقى على بدء دوامى فى العمل ساعتان (يعمل تُرجمانًا فى مركز دراسات سياحية ، وأعمل أنا محرر بيانات فى شركة زراعية) .

كان يجب أن تستغل وجودك فى استراليا وتقصد تلك العيادة .

شهرة تلك العيادة اقترنت بإصلاح الساعات البيولوجية المتأخرة ، لا المتقدمة .

قال ذلك وسقط نائمًا فى مقعده كأنما مغشيًا عليه ، وقد بذلت جهدًا فائقًا لإيقاظه ، كى ينهض ويغلق باب البيت ورائى .

مكالمة منتصف النوم

كنتُ فى الليلة السابقة وكعادتى قد أمعنتُ فى السهر، وقد تجاوزت الساعة الثالثة ما بعد منتصف الليل، ثم أمضيت ساعة أخرى أتقلب فى الفراش قبل أن يوافينى النوم. بعدئذ نجحتُ على غير عادتى فى سماع صوت المنبه فى الثامنة صباحاً، وقد نهضتُ بصعوبة كيما أودى التزامًا فى التاسعة صباحًا، بحضور اجتماع اللجنة التعاونية بحكم عضويتى فى هيئتها العامة. كان الاجتماع موفقًا وامتد لنحو ثلاث ساعات فقد تخللته انتخابات شيقة لهيئة قيادية جديدة للجمعية شارك فيها نحو ١٧٠ عضواً، وعقب انفضاض الاجتماع والمباركة للفائزين، حملت صحيفتين محليتين إلى مقهى هادئ غير بعيد، راغبًا بالاستمتاع على هواى بإجازة قصيرة نلتها من عملى محاسبًا فى إحدى الشركات. وقد عكفتُ

هناك على قراءة الصحيفتين خلال ساعة ونصف الساعة تناولتُ خلالها فنجاني قهوة، فلا يُعقل أن أمكث كل ذلك الوقت مع فنجان قهوة واحد، حتى لو كان مصحوبًا بعبوة مياه معدنية.

زهاء الواحدة والنصف ظهرًا عدتُ إلى البيت، وأنا أشكو من نعاس يضغط على "أم رأسي". كان الوقت ما زال مبكرًا على الخلود إلى القيلولة، وقد ألهيتُ نفسي في وحدتي بمشاهدة مقاطع من أفلام أجنبية مترجمة في التلفزيون، ولعلها عادة غريبة أن أتابع مقطعًا من هذا الفيلم على محطة ما، ومقطعًا من ذاك على محطة أخرى، دون معرفة اسم الشريط ومخرجه وأبطاله. غير أني أجد الأمر مسليًا ويتيح متعة حرة أقوم خلالها بوضع بداية ونهاية للشريط من عندي، وذلك بدل متابعة فيلم قد يستغرق عرضه وقتًا طويلاً،علاوة على التقيد بموعد عرضه. ولما مضت نحو ساعة من الزمن، نهضت وبحثتُ عن طعام فوجدت نصف رغيف من بيتزا في الثلاجة قمت بتسخينها، تناولتها وأنا شارد الذهن واتبعتها بتناول شراب فواكه مصنوع، وما إن فرغت حتى اشتد على النعاس، فأويت إلى الفراش بعد إسدال ستائر غرفة النوم تفاديًا لضوء شمس ما زالت تسطع في الخريف. .ورغم النعاس والرغبة الشديدة في الإغفاء، إلا أن النوم تيسر لي بعد وقت يعلم الله كم دام.

نمتُ بعمق. من الغرابة أن ينام المرء في النهار باستغراق أكبر من نوم الليل.. نوم سائر الكائنات، لكن هذا هو ما يحدث معي ولا حيلة لي فيه. وفيما كنتُ أعبر تلك المنطقة الأشد إعتامًا من

اللاوعى، سمعت صوتاً بعيداً لرنين هاتف، واعتقدتُ وأحببت أن أعتقد أن الصوت لا يصدر عن جهازى الموضوع على مقربة من سريرى. ولما ارتفع صوت الرنات وزاد وضوحها واقترابها من مسامعى، فقد أدركت أن الرنين يصدر عن جهازى دون أن تساورنى رغبة سوى بالمضى فى الإبحار بالنوم. كابدت على نفسى ورفعت جذعى متثاقلاً، حملتُ سماعة الهاتف الثابت بيدٍ شبه مخدرة، وقرأت بعينين نصف مفتوحتين نصف مغمضتين رقم المتصل على الشاشة الكاشفة للأرقام، وخمنتُ أن الرقم مألوف لى، ونصف نائم نصف مستيقظ أجبت.

عرفتُ فى حينه تلك التى اتصلت، أو أنها عرّفت بنفسها، وقد أجريت معها حديثا شائقًا موصولاً. كانت المتصلة صديقة أو زميلة، وساد الحوار الذى لم يكن قصيراً جوٌ من التفاهم والوداد، وخُضنا دون تحفظ فى تفاصيل دقيقة، وأبعد من ذلك كان مفعمًا بالدفء.. الدفء العاطفى لا الغرامى، كما قد يتبادر إلى الأذهان. وقد شعرتُ بارتياح بعد انتهاء المكالمة، فقد كان الحوار وديًا و"مثمراً"، جاء فى وقته ووضع الأمور فى نصابها. وسرعان ما غرقتُ ثانيةً فى نوم ثقيل لما يزيد عن ساعتين، وذلك بعد أن حسّن الاتصال الهاتفى مزاجى، وساعدنى على الغوص مجدداً وبيسر فى تلك المنطقة المعتمة العميقة.

خرجتُ من النوم مرتاحًا ومضعضعًا، كحال عائد من سفر وكمن يخرج من مطار مزدحم إلى الهواء الطلق. فكرتُ للحظات بما

إذا كان هناك برنامج للنصف الثاني.. المسائى من اليوم. عجزتُ عن التفكير وأنا مستلقٍ على الفراش. قمتُ وغسلت وجهى، ولم تكن لحسن الحظ قد اعتمت بعد. وقد نجحت إلى حد ما فى الانتعاش وطرد تهويمات النوم، وفكرتُ أن القيلولة منحتنى قسطًا كافيًا من الراحة، وأني استعدتُ بها حيويتي المعهودة. وتذكرت أني تلقيت في منتصف النوم مكالمة لطيفة كنت أحتاجها، وأني تحدثت في الاتصال الهاتفى حديثًا مُسهبًا ومن القلب، واستمعت من الطرف الآخر إلى حديث صريح لم يكن موجزاً، وأنه يمكنني قضاء بقية اليوم فى مزاج طيب.

مشكلة واحدة صغيرة صادفتني، هي أني عجزت عن استذكار من كان على الطرف الآخر، ولم تسعفنى ذاكرتى فى استعادة أية فكرة، ولا حتى أية كلمة مما دار من حديث هاتفى بيننا. وكأن عقلى احتسبها من أنشطة اللاوعى لا من أنشطته، ولم يقم من جهته بأى حفظ وتخزين لتلك المكالمة فتعذرت استعادتها.

بعد تلك المكالمة الهاتفية وفى الأيام والأسابيع اللاحقة، لم يحدث أبداً أن صديقة أو زميلة ما، فاجأتنى بأى أمر يتعلق بتلك المكالمة، بما يُعيد تذكيرى بما دار فيها وبهوية من بادرت للاتصال.. وخوفى أن من اتصلت قد انتظرت هى، أن أشرع من جهتى بالتذكير بتلك المكالمة، واستئناف ما دار فيها أو المصادقة عليه، وهو ما لم أفعله.

لم يحدث ذلك بالأمس، أو قبل أسبوعين أو فى السنة الفارطة. حدث قبل عشرين سنة شمسية فالزمن يجرى بأسرع مما نظن، وكنتُ حينذاك فى منتصف ثلاثينيات عمرى، وقد تلقيتُ منذ ذلك التاريخ مكالمات بهيجة متفرقة منها ما هو فاتن حقًا، وبضعة اتصالات سيئة منها ما هو شرير بالفعل، وما لا حصر له من مكالمات باهتة وروتينية. غير أن تلك المكالمة..مكالمة منتصف النوم ليست فقط هى الأشد سحراً، إذ تستيقظ روحى ويخفق قلبى كلما تذكرتُنى وأنا أتحدث وأصغى خلالها، بل إنى ما زال يساورنى أملٌ محرور بأن أعرف هوية صاحبتها، فى ما تبقى لى من عُمر..أمدّ الله فى أعمار السامعين والقارئين.

المحتوى

- سحر الحياة 5
- سوء تفاهم 13
- الثلاثة ورابعهم 15
- أضحى 19
- صوت غريب 21
- الفراشة تبطش 25
- كيوى، يازرو، أفوكاتو 29
- ارتباط عاطفى 35
- بائع الأحلام 39
- ابتسامة أخيرة 45
- حانة الديك الأحمر 49
- خنفسة النهار 59
- فوق ما تتصور 63
- فرق التوقيت 71
- مكالمة منتصف النوم 79

الكاتب

*** محمود الريماوى**

* " إخوة وحيدون" (نصوص) دار أزمنة - عمان

* "كل ما فى الأمر" (نصوص) دار أزمنة - عمان

* "المجموعات القصصية السبع "- وزارة الثقافة الأردنية - عمان .

* " لقاء لم يتم " مختارات قصصية -أمانة عمان الكبرى .

* " الوديعة "قصص ط ١ أمانة عمان الكبرى، ط٢ هيئة قصور الثقافة - القاهرة .

* " سحابة من عصافير " قصص - دار الساقى : لندن ، بيروت.

* "رجوع الطائر" قصص - دار فضاءات عمان .

* "من يؤنس السيدة" رواية - دار فضاءات عمان.

صدر مؤخراً في سلسلة
آفاق عربية

148- من بحر العرب إلى بحر الصين .... سيف الرحبي

149- من ليل يستريح على خشب النافذة .... حسن نجمى

150- رغوة القلب الفائضة .... ميسون صقر

151- البحـريـات .... أميمة الخميس

152- إنكسرت وحيداً .... محمد حبيبى

153- لا تجرح الماء .... أحمد قرآن الزهرانى

154- مهر الصياح .... أمير تاج السر

155- جمر كانون .... أبو بكر العيادى

156- عطش الحمائم .... إبراهيم سليمان نادر

157- حياة ميتة .... عاطف أبو سيف

158- جُرحًا توَحّدَ.. كيْ يَنْتَقِي شَكلَ مَوتِه ...... محمد عبده الشجاع

159- نساء الريح .... رزان نعيم المغربى

160- خذ ساقيك إلى النبع .... كامل فرحان صالح

سلسلة آفاق عربية

تساءلت مع نفسي إذا كانت غيَّرت عاداتها بعد طلاقها منه، لكن الأرجح أن لا. وربما كان الاختلاف في مواقيت نوم واستيقاظ كل منهما، أحد أسباب انفصالهما. بالنسبة لي فقد تعايشت زوجتي مع حالتي، ولو تغيرت عاداتي فلسوف يفاجئها ذلك أيما مفاجأة (لا نتحدث بهذه الفصحى معًا) وقد تضطر لبذل جهد جهيد مديد، كي تتعايش مع هذا المستجد إذا استجد ولن يستجد.



www.gocp.gov.eg

السعر: ثلاثة جنيهات